الفصل الثالث

تجديد الهوية الشرقمتوسطية (العربية)

- عالم عربي أم عالم شرقمتوسطي؟
- مع الوحدة العربية وضد القومية العربية
- بلدان الهلال الخصيب والهوية المشرقية المنسية
- ملاحق معلوماتية عن تاريخ بلدان المشرق العراقي ـ الشامي، وعن وحدة الهلال الخصيب والحزب القومي السوري

خارطة العالم العربي (العالم الشرقمتوسطي)

عالم عربي أم عالم شرقمتوسطي

عربي.. عروبي.. اعرابي..

من اجل اسم جديد لهوية مزقتها الكلمات..

كانت المرة الأولى التي واجهتني بها هذه الإشكالية يوم 5 حزيران 1967. كان عمري آنذاك يتجاوز 11 عاماً، ولم أزل في أولى خطوات اكتشاف الذات والهوية والانتماء الى الجماعة. استيقظت ذلك الصباح على وهج حزيران وأناشيد المذياع وجدال أهل الحارة. كلمة «عرب» كانت تتردد بكثرة ذلك اليوم: العرب هجموا.. العرب سيرمون اسرائيل في البحر.. العرب تقدموا.. العرب.. العرب..

أصابتني الدهشة منذ تلك الساعة واحتجت الى أعوام لكي أفهم ماذا يقصد الناس بكلمة «عرب» وحتى الآن لم يكتمل فهمي تماماً. منذ صغري كنت أسمع كل يوم هذه الكلمة ولكن بمعنى أقرب الى الشتيمة. نحن سكان أحياء الطين المهاجرين من الجنوب، كان أهل بغداد (المتمدنون) يطلقون علينا تسمية «عرب» وكذلك «شروكية، أي شرقية»، القادمين من محافظات العراق الجنوبية الشرقية. منذ صغري تعلمت أن كلمة «عرب» هي عكس كلمة «حضر»، وهي رديف للفقر والتخلف والبداوة. وعندما كان يأتينا البدو مع جمالهم ليبيعوا الملح، كان الناس يقولون: (جاء العرب). كنت متيقناً أن رجال العرب مثل أبي تقليديون ويرتدون العقال العربي والنساء مسكينات يرتدين العباءات السوداء. أهل المدينة متطورون مثل الاوروبيين والكثير منهم مسيحيون وحتى أسماءهم شاعرية ومعطرة مثل طباعهم: لؤي، عدي، دريد، مي، منير، سهى، ... بينما أهلي «العرب» فأسماؤهم تبدو مضحكة وسيئة في عيون المتمدنين: جاسم، كاطع، حنتاو، صينية، موزة، شمخي، صلبوخ، وحتى صهيون!

وأهل الحضر دائماً لونهم أبيض كالحليب، نساؤهم سافرات ورجالهم أفندية مع ربطات عنق وأحذية لماعة وهم وأولادهم يرتدون البيجامات. بينما نحن «العرب» محروقون بالشمس والغبار ولهذا يسموننا (أولاد الملحة) ونرتدي الدشاديش «المتخلفة». وكنت أعتقد أن اللغة الفصحى ولهجة الأفلام المصرية هي من شيم أهل الحضر والمدينة بينما نحن العرب لهجتنا

ثقيلة مخزية. ولكي ندخل فعلاً في عالم الحضارة كنا نجهد أن نتخلص من لهجتنا ونرطن بكلمات فصيحة، فغصبنا أنفسنا بمناداة أبينا (بابا) بدل (بويا)، وأُمنا (ماما) بدل (يُمّا).

هذه الصورة التي كنت أحملها عن العرب حتى يوم 5 حزيران 1967، لهذا فان أول شيء خطر في بالي ذلك الصباح أن أعمامي «العرب» هجموا بفقرهم وخيولهم وسيوفهم على الاسرائيليين. وكنت أداري نفسي بأمل أن لا يكون أعمامي وحدهم في الحرب إنما معهم عرب الخليج والسعودية وربما الأردن، لأني سبق وأن رأيت في الصحف أنهم يرتدون العقال العربي. ولم أصدق مذيع تلفزيون بغداد الأفندي الجميل الأنيق وهو يقول بغضب وتحدٍّ: «نحن العرب»، ثم الأكثر عجباً أن عبد الحليم وفيروز وناس متحضرين كثيرين ينشدون أيضاً: «نحن العرب». الحقيقة أن أول من أوضح لي هذا الالتباس صديقي محمود الفلسطيني عندما أفهمني ذلك اليوم في المدرسة: ان هناك عرباً متخلفين فقراء واحدهم يسمى عُربي (العين مضمومة)، وهناك عرب متطورون وأغنياء واحدهم يسمى عَربي (العين مفتوحة)! وبين الضمة والفتحة هناك عالم لا محدود من الفروق الحضارية ومشاعر متناقضة تتراوح بين التفوق والعار.

أقولها بصراحة، أني خلال أعوام طويلة لم أتخلص تماماً من مشكلة انتمائي الى قوم اسمهم «عرب». مرحلة الشباب الأولى عشتها بثورة وتعصب قومي عربي مراهق حالم. يبدو أن التعصب لقضية ما يأتي عادة من الشعور الدفين بالعار ازاء هذه القضية. ثم عشت بعدها سنوات المرحلة النقيضة، حيث تمردت ورفضت كل ما هو عربي وقومي بحجة الانتماء الطبقي والأممي التقدمي والمتحضر والسبب يبقى هو ذاته أي الشعور الدفين بالعار. والآن ومنذ بضعة أعوام وخصوصاً بعد تجربة العيش في أوربا والمواجهة اليومية مع الاستعلاء الأوروبي من ناحية والانمساخ العربي من ناحية أخرى، بدأت اكتشف هويتي الحقيقية عبر اكتشاف حقيقة هوية الآخر (فرداً وجماعة). الانسان الآخر بأبعاده السياسية والعقلية والجغرافية والتاريخية. عرفت أن هذه المشكلة لا تخصني أنا وحدي بل إن جميع الشعوب الناطقة بالعربية تعاني من (تمزق كلامي ودام) في الهوية، أدى ويؤدي الى عذابات وصراعات وحروب أهلية لا تتوقف. منذ صبيحة يوم 5 حزيران 1967 وأنا أعيش وأتابع هذه الإشكالية التي تزداد حدة وتعقيداً عاماً بعد عام وبعد كل حدث. كل يوم يزداد يقيني بأن «عرب» ليست كلمة واحدة وليست معنى واحداً وليست انتماءاً تاريخياً أو جغرافياً أو سكانياً (عرقي) واحد. إنها (كلمة ـ هوية) لا تكف أن تكون عرضة لعواصف التفسيرات والحركات الإعرابية.

كلمة واحدة بمعاني متعددة

هناك حكاية عن أربعة مهاجرين من بلدان المغرب العربي، قرروا يوماً وضع إكليل من الزهور عند المكان الذي استشهد فيه رفيقهم الجزائري أثناء تظاهرات الطلبة في باريس منذ بضعة أعوام. في طريقهم الى المكان تجادل هؤلاء الشبان عن العبارة التي سيكتبونها على الإكليل. أحدهم قال : باسم الجالية «العربية»، فرد عليه الآخر معترضاً: باسم الجالية «الشمال افريقية»، أما الثالث فقد طالب، باسم الجالية «المغاربية»، والرابع أصر: باسم الجالية «الإسلامية»، حتى احتدم الجدل وتطور الى شجار أدى الى تمزق الاكليل وخراب المشروع.

هذا مثال واضح على إشكالية الهوية التي انغمر فيها العقل العربي فما أسهل أن نستمع الى البعض من مختلف البلدان العربية يبذل الجهد لكي ينفي تهمة أن يكون عربياً ليبرز انتماءه الوطني أو العرقي أو الديني أو القاري.

والمشكلة تكمن في أن تسمية «عرب» غير قادرة على إبراز معناها الجيوسياسي الشامل لكل الأعراق والطوائف والقوميات القاطنة في هذه البقعة المسماة العالم العربي. هذه التسمية ارتبطت منذ تكوينها تاريخياً بالعنصرالعربي وواقعياً باللغة والثقافة العربية. تسمية الأوروبي مثلاً لا تتضمن إمكانية تفسيرها بغير المعنى الجيوسياسي بسبب عدم وجود عرق أوروبي ولغة أوروبية بل هنالك لغات وثقافات وأعراق لها روابط ومصالح مشتركة تجتمع تحت اسم الانتماء الأوروبي الجيوسياسي.

عندما يلتقي مغربي من أصل بربري مع عراقي من أصل تركماني، أمن المعقول أنه لا شيء يجمع بينهما لكونهما ليسا من «عرق» عربي؟ كيف يمكن أن يعبرا عن انتمائهما المشترك لمنطقة جيوسياسية واحدة لها ما لا يحصى من الروابط والمصالح المشتركة وتجتمع تحت لواء جامعة الدولة العربية. بإمكان هذين البربري والتركماني أن يقولا نحن من الشرق أو الإسلام أو العالم الثالث، ولكنهما سوف يجدان صعوبة حقيقية في القول بأنهما «عرب» للتعبير عن انتمائهما المشترك لكتلة جيوسياسية واحدة. وعندما يقول العراقي الناطق بالعربية لأخيه العراقي الناطق بالسريانية بأنهما عراقيان الأمر مقبول، لكن السرياني سوف يجد صعوبة بتقبل عبارة (نحن عرب) لأنه يفترض مباشرة المعنى العرقي لهذه العبارة. لهذا يميل الكثير من العرب الى القول بأنه شرقي أو من الشرق الأوسط أو من الضفة الشرقية للبحر المتوسط أو من آسيا

أو افريقيا، أو أي اسم آخر للتعبير عن انتمائه لمنطقة تشترك بعوامل الوحدة الجيوسياسية اسمها العالم العربي. نفس الحالة من التشابك والتردد اللغوي نواجهها على الصعيد السياسي، أن يلتقي شخصان من نفس البلد أو حتى من نفس العائلة فيخاطب أحدهما الآخر: أنا فينقي لبناني وأنت عروبي متنكر لانتمائك الوطني للبنان.. أنا عراقي أصيل وأنت عربي بدوي غازٍ لوطني.. أنتم العرب أبناء الصحراء ونحن المصريين أبناء الحضارة الفرعونية العريقة.. تاريخنا نحن أبناء سومر، أو قرطاج، أو فرعون، أو ما شاء التاريخ، بينما هم أو أنتم أحفاد الصحراء والتاريخ المتأخر عن تاريخنا بآلاف السنين. نحن وأنتم وهم، وما لا يحصى من التشابكات اللغوية التي لا تكف عن التعقيد والتبسيط والاستغلال الساذج وتشويه الحقائق والحروب الصغيرة والكبيرة. كل هذا من أجل تجنب المعنى الفلاني لكلمة «عرب» بسبب تعدد التفسيرات والاستخدامات لهذه الكلمة التي ارتبط بها تاريخنا منذ الفتح العربي في القرن السابع وحتى الآن.

الاشكالية اذن تتمحور أساساً حول المعاني المتعددة والمتناقضة لهذه الكلمة ــ المصطلح «عرب». يمكننا تحديد المعاني المعروفة والمتداولة بخمسة. هنا محاولة للدخول في تفاصيل هذه المعاني المتنوعة، على أمل الدخول في تفاصيل التمزقات الواعية وغير الواعية التي نعاني منها أفراداً وشعوباً في دروب البحث عن الذات والهوية.

أولاً: المعنى العرقي القومي

وهو المعنى السائد والمستخدم رغم أن الكثير يحاول إخفاءه بمعانٍ أخرى. فالعرب حسب هذا المعنى هم مجموعات من البشر ينتمون الى أصول قبلية وثقافية واحدة، وتاريخهم الحضاري يبتدىء مع ظهور الاسلام وخروجهم من الجزيرة الى باقي المناطق التي تسمى الآن البلدان العربية. ولهؤلاء البشر مثل جميع الشعوب لغة واحدة هي اللغة العربية. وحسب هذا المعنى فإن القبطي عرقياً هو ليس عربياً، والآشوري ليس عربياً، والبربري كذلك، أغلب المجاميع السكانية القاطنة في هذه البلدان العربية هي ليست عربية بالمعنى العنصري والمحدد للكلمة. وعلى هذا الأساس فإن تاريخ العرب، ثقافةً وسياسةً ودِيناً وتراثاً ووجوداً بشرياً يبتدىء منذ القرن السابع ومن منطقة محددة هي الجزيرة العربية، ثم يمتد ويتفرع وينمو بعد الفتح العربي الاسلامي ليشمل جميع المناطق التي تم تعريبها أو ما يسمى اليوم بالعالم العربي.

ثانياً: المعنى الاجتماعي

وهذا المعنى يكاد أن يكون سائداً على المستوى الشعبي والتاريخي. ويمكن اتخاذ مثالي الشخصي الذي ابتدأت به الموضوع نموذج لهذا المعنى. والحقيقة ان كلمة «عرب» ارتبطت في أصلها اللغوي التاريخي بمعنى البداوة ثم فيما بعد اتخذت معناها القومي. المعنى اللغوي لكلمة «عرب» يقصد الناس المتنقلين، ومن المحتمل أن تكون هذه الكلمة ابدالاً مع كلمة «عبري» أي العابرين والمتنقلين. وهنالك فرضية أقوى تعتبر كلمة «عرب» متأتية من «غرب» وخصوصاً أن العين والغين تتبادلان في اللغات السامية، وأول من أطلق هذه التسمية سكان العراق الآشوريين في القرن الثامن قبل الميلاد على القبائل البدوية القاطنة في «غرب» الفرات. ويبدو أن هذا الخلط بين الانتماء العرقي للعرب والاتهام بالبداوة وعدم التحضر موجودة منذ القدم. حتى القرآن يشير الى هذه المسألة بالحديث عن الأعراب: ﴿وممن حولكم من الأعراب منفقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق...﴾ (سورة التوبة: الآية 101). حتى مؤرخينا والباحثين في تاريخ الأدب العربي قد وقعوا في إشكالية الخلط بين المعنيين. دائماً نسمع من يذكر مقولة ابن خلدون الشهيرة (اذا عربت خربت) متناسين انه لا يقصد المعنى «العرقي» إنما المعنى «الاجتماعي»، وبالذات بمعنى قبائل بني هلال التي اجتاحت وخربت المغرب. لأن ابن خلدون نفسه يفتخر بانتمائه للعرب وأصله المعروف المنحدر من قبائل اليمن. ويمكننا قول نفس الشيء عن الكثير ممن اتهموا بالشعوبية من قبل مؤرخينا بسبب الخلط بين المعنيين البدوي والعرقي. وهذا الخلط في المعنى نجده حالياً في جميع لهجات البلدان العربية. دائماً هنالك كلمة ما مشتقة من «عرب» تستخدم للاستصغار والاتهام بالبداوة: أعراب، عُربان، ... وغيرها!

ثالثاً: المعنى الجيوسياسي

هذا المعنى يرتبط أساساً بحقيقة واقعية وتاريخية مناقضة تماماً للمعنى العرقي. تبدأ الحكاية مع خروج القبائل العربية من الحجاز حاملة رسالة الاسلام والشروع بفتح وتعريب بلاد النهرين ومصر وشمال افريقيا. ومنذ الأعوام الأولى لتكوين الدولة العربية الاسلامية بدأ المعنى الجيوسياسي ينافس المعنى العرقي الذي حاول أحياناً أن يعارض وأحياناً ان يتفق ويندمج. القبائل العربية التي استوطنت هذه البلدان مهما كان عددها، فأن الأرقام تثبت أنهم

كانوا دائماً أقلية عددية مقارنة بالشعوب الأصلية القاطنة منذ آلاف السنين. ولكن القبائل العربية كانت تمتلك القوة العسكرية والسياسية بالاضافة الى القوة الفكرية والروحية الكبرى المتمثلة بالاسلام. في البدء ومع الدولة الأموية كانت لا تزال القبائل العربية لم تفقد بعد خاصيتها العرقية والتمايز عن الشعوب الأصلية (الموالي) القاطنة في هذه البدان. لكن بعد قرون من التزاوج والتمازج ومع ظهور الدولة العباسية وصلت حالة انصهار العنصر العربي في الشعوب الأصلية الى ذروتها. وهذا يفسر ردة الفعل القوية من قبل بعض المتمسكين بالنقاء العرقي ازاء حالة الذوبان الحضاري هذه ومحاولة تقديس القبلية العربية بأسم مكافحة الشعوبية.

في العصر الحديث اتخذ هذا المعنى الجيوسياسي طابعاً رسمياً مع تكوين جامعة الدول العربية وانبثاق مفهوم الدول العربية أو العالم العربي. هذه الدول تعترف بوجود أقليات ثقافية ودينية متنوعة في بلدانها وكذلك بانتمائها العربي الجيوسياسي البعيد عن الانتماء «العرقي». مصر والمغرب والعراق دول عربية مثلما تقول البرتغال والبانيا والسويد دول أوروبية، فالانتماء هنا انتماء سياسي جغرافي ومصالح مشتركة ولا يشترط أي انتماء عرقي أو قومي بالمعنى المباشر. هذا المعنى يفترض أن الأرمني المقيم في بلد عربي والقبطي والبربري هم عرب، كما الايطالي الكاثوليكي والألباني المسلم والألماني البروتستانت هم أوروبيون، وكما المصري والسنغالي والافريقي الجنوبي الأبيض هم افريقيون. انه انتماء جغرافي سياسي لا يعني أي انتماء عرقي أو اجتماعي.

رابعاً: المعنى العروبي القومانى

وهذا المعنى له جذوره القديمة منذ انبثاق مفهوم العرب. ويمكن أن نجد أساسه حتى في القرآن عندما أكد على : ﴿أنزلناه قرآناً عربياً...﴾ (سورة طه : الآية 103). ثم اصرار قادة العرب على أن يكون خليفة المسلمين من نسل عربي شريف وان تكون اللغة العربية هي لغة الدولة والدين والحضارة. ووصل الى ذروته في هذا الاتجاه الكفاحي في الفترة العباسية مع اندلاع الصراع مع الحركات الشعوبية المعادية للهيمنة العربية. ظل هذا الاتجاه خامداً خلال قرون الحقبة العثمانية وكاد أن يذوب في النسيان في الحالة الاسلامية ــ العثمانية المتعددة القوميات، لولا انبثاق التيار القومي الأوروبي والحركة الاستعمارية ثم انجرار الأتراك الى التعصب التركي وبالتالي دخول العرب في هذا المعترك الكفاحي وبدء تكون

حركة القومية العربية في أواخر القرن الماضي واعطاء هذا الاتجاه القديم بُعداً ايديولوجياً وبنية سياسية.

أول ما يميز هذه الحركة انها ترفض الانصهار القومي والثقافي والسياسي في الحالة الأجنبية (عثمانية اسلامية أو أوروبية). ثم الميزة الأخرى المهمة في هذا التيار انه حاول بصورة واعية ولا واعية أن يجمع ما بين الانتماء العرقي العربي والانتماء الانساني الجيوسياسي تحت شعارات الوحدة العربية والأمة والرسالة الخالدة. فهو من ناحية يعلن أن جميع القاطنين في البلدان العربية هم عرب بغض النظر عن انتمائهم العرقي، ومن ناحية أخرى يؤكد في تفاصيل دعوته على أهمية العنصر العربي وتاريخ انبثاق القبائل العربية من الجزيرة، وعلى عروبة الاسلام والانتماء العربي لقادة الحضارة العربية الاسلامية. فأي نصير لهذا التيار يحاول في أعماقه أن يثبت انتماءه «العرقي» العربي لتبرير ولتوكيد انتمائه للتيار العروبي الكفاحي هذا.

خامساً: المعنى التاريخي ـ الحضاري

هذا المعنى دخل الى الساحة في العصر الحديث مع بدايات عصر النهضة والاستقلال واكتشاف أبناء البلدان العربية أن لهم تاريخاً طويلاً عريضاً سبق الوجود العربي الاسلامي يشتمل على اكبر الحضارات وآلاف السنين: بابليين وكنعانيين وفراعنة وقرطاجيين وغيرهم.

والمشكلة التي واجهت وتواجه جميع المثقفين العرب وخصوصاً المؤرخين، أن مصطلح «عرب» ارتبط تاريخياً بعصر الفتح العربي وهذا يعني أنه لا يشتمل على العصور التي سبقته. فالحضارة النهرينية ليست عربية وكذلك المصرية والشامية والقرطاجية. هنا تأتي الازدواجية ـ الانفصامية بين التاريخ العربي القومي الذي يبتدىء بمكة والاسلام، ثم التاريخ الوطني لكل بلد عربي الذي يبتدىء بآلاف السنين قبل الاسلام. ومن أجل التخلص من هذه الانفصامية بين القومية والوطنية (القطرية)، ثمة ميل خجول بدأ ينمو عند المؤرخين العرب باطلاق تسمية عرب على الحضارات والشعوب السامية (العراقية والشامية والقرطاجية)، وأحياناً أقل تعتبر عربية كذلك الشعوب الحامية (المصرية والبربرية). (راجع مثلاً كتابات احمد سوسة وفكتور سحاب وبرهان الدين دلو، وغيرهم). وهي محاولات فاشلة تعاني من ضعف كبير لا يشجع على نجاحها، لأن كلمة «عرب» تحولت الى مصطلح شبه ثابت ارتبط دائماً بالقبائل العربية والجزيرة العربية والفتح الاسلامي واللغة العربية. بالاضافة الى أن المؤرخين أنفسهم لم

يتخلصوا من فهمهم العرقي العروبي، تراهم رغم «تعريبهم» للحضارات العراقية والشامية والمصرية فانهم يعودون دائماً الى «تقديس» الحضارات «العربية» في اليمن والجزيرة العربية ويعتبرونها هي الأساس والمنطلق للتاريخ «القومي العربي»!

العالم الشرقمتوسطي بدل العالم العربي

يمكن مقارنة تسمية «عرب» مع تسميات جيوسياسية مماثلة في مناطق أخرى من العالم. مثال «آسيا»، فهذه الكلمة تتضمن أيضاً بعض الإشكال. إذ هناك فرق بين أن يقول العراقي أو اللبناني أنه من قارة آسيا ولكنه لا يقول أنه «آسيوي» لأن هذه التسمية اتفق عليها عموماً أن تعني الانتماء الى الجنس الأصفر (الصين وتايلاند والفلبين وغيرها). هنالك مثال أقرب الينا تركيا مثلاً، فمشكلة تركيا ان هذا الاسم ارتبط بعرق معروف اسمه العرق التركي المنتشر في معظم أواسط آسيا وفي بلدان عدة مثل اذربيجان وتركستان وأوزبكستان وغيرها. ولكن تركيا البلد تعاني من ازدواجية أشبه بالازدواجية العربية: ان الشعب التركي الحالي ينتمي الى أصول عرقية مختلفة، منهم الأكراد والعرب والأرمن واليونان والسلاف. عبارة «أنا تركي» تفترض المعنى العرقي ـ اللغوي، وتتناقض مع الانتماء الوطني (الجيوسياسي) لباقي الأعراق غير التركية. ثم انه عند الحديث عن تاريخ الأتراك كعرق ولغة وشعب يتناقض مع تاريخ تركيا كبلد وارض موجودة ومسكونة بالشعوب والحضارات الحثية والاغريقية ـ البيزنطية منذ آلاف السنين قبل فتح الأتراك لتركيا الحالية. لهذا فإن الأتراك بحاجة الى تسمية أخرى يطلقونها على بلدهم لتجنب المعنى العرقي التركي، ومن أجل الانتماء للمعنى الجيوسياسي الشامل لتنوع الشعوب وامتداد التاريخ. وربما تسمية «بلاد الأناضول» هي الأنسب والأكثر تطابقاً مع تاريخ البلد وسكانه وثقافته المتنوعة العريقة.

ربما التجربة الايرانية أفضل مثال على نصف النجاح في اتخاذ المسميات الشاملة. فايران حتى أوائل القرن كانت تسمى (بلاد فارس). ولكن الفرس في ايران لا يمثلون أكثر من 50٪ من السكان والباقون من الأكراد والتركستان والعرب والبلوش وغيرهم. لذا كان الاختيار الذكي للشاه رضا خان باعادة استخدام اسم (ايران عام 1935) بمعنى بلاد الآريين، ومنهم الفرس والأكراد والغيلانيين والمازندارانيين. ولكن هذا الحل يعاني من ضعف لِكَون بعض القوميات في ايران هي من أصول غير آرية مثل التركستان والعرب.

بناء على هذا يمكن ان نفترض أننا اتفقنا يوماً على الحفاظ فقط على المعنى العرقي لتسمية «عرب» فنقول : القبائل العربية، اللغة العربية، تاريخ العرب الذي بدأ في الجزيرة العربية في القرن السابع. أما المعنى الجيوسياسي المعبر عن العالم العربي بتاريخه وتراثه وحضاراته وشعوبه، فيمكن استخدام تسمية أخرى غير هذه التسمية. لنقل مثلاً اننا اخترنا تسمية «شرقمتوسطي»، وهذا اختيار أولي قابل للنقاش والتغيير لكننا فضلناه لأسباب عديدة منها : ان اشتقاق كلمة «شرقمتوسطي» للتمييز عن «شرقي» و «مشرقي» وأيضاً شموليتها لجميع منطقة شرق البحر المتوسط أي ما يسمى حالياً «العالم العربي» الذي يقابل أوربا التي تقع غرب البحر المتوسط. وهذه التسمية متداولة منذ سنوات وقد سبق مثلاً استخدامها من قبل عبد الرحمن منيف في روايته الشهيرة (شرق المتوسط). ومن المعروف ان البحر المتوسط لا يشمل فقط البلدان الواقعة على سواحله، بل يمتد تأثيره الى ابعد من ذلك. ان العراق مثلاً يعتبر من بلدان البحر المتوسط الذي يتوقف تأثيره عند جبال زاغاروس لهذا فأنه لا يمكن اعتبار ايران شرقمتوسطية. وفي كل الاحوال انها قضية اتفاق مصطلحي ولا تشترط ابداً التقيد الحرفي بالواقع فليس هنالك مصطلح واحد يتطابق تماماً مع الواقع الذي يعبر عنه. من حقنا نحن ايضاً ان نصنع ونفرض مصطلحاتنا ولا نترك الغربيين يفرضون دائماً مصطلحاتهم علينا كما هو حاصل مثلاً بمصطلح (الشرق الادنى والاوسط)، و(العالم الثالث).. وغيره الكثير الكثير..

إن تسمية «شرقمتوسطي» هذه لو افترضنا إمكانية استخدامها بدلاً من تسمية «عربي» فإنها سوف تجنبنا جميع الإشكاليات العرقية والتاريخية والاجتماعية التي أضعفت حتى الآن روح الوحدة والهوية المشتركة بين شعوب وجماعات بلداننا «العربية». حينئذٍ سيمكننا القول مثلاً «العالم الشرقمتوسطي» بدل «العالم العربي»، وجامعة «الدول الشرقمتوسطية» وتاريخ «الشعوب الشرقمتوسطية». وعندما ندخل في التفاصيل سنقول أن هذه الشعوب الشرقمتوسطية تتكلم حالياً اللغة العربية منذ أن فتحتها القبائل العربية التي فرضت لغتها والاسلام من خلال امتزاجها بالشعوب الشرقمتوسطية الأصلية. ومعظم الشعوب التي استوطنت في العالم الشرقمتوسطي خلال التاريخ هي شعوب يجمعها الانتماء الى الوحدة اللغوية للعائلة السامية ــ الحامية، مصريين وبربر وبابليين وعبرانيين وآراميين، وآخرهم العرب، بالاضافة الى جماعات كثيرة آسيوية (كردية وتركمانية وأرمنية وشركسية) وكذلك أوروبية وافريقية، ومساهمتها الثقافية والسياسية في خلق الهوية الشرقمتوسطية المتنوعة

والموحدة في ذات الوقت. تاريخ هذه البلدان الشرقمتوسطية يمتد لعدة آلاف من الأعوام، وخلاله انبثقت أولى حضارات البشرية في بعض أجزاء هذا العالم الشرقمتوسطي. العراق ومصر، وأعقبتها حضارات كبرى في بلاد الشام ثم اليمن وشمال افريقيا. وفي القرن السابع برزت من بين هذه الشعوب مجموعات قبلية صحراوية تقطن الجزيرة العربية، شاعت تسميتهم «عرباً». في القرن السابع خرجت هذه القبائل العربية من صحارى ومدن الجزيرة حاملة رسالة الاسلام وشرعت بفتح باقي العالم الشرقمتوسطي من العراق والشام وبلاد النيل وشمال افريقيا وشملت الفتوحات أجزاء أخرى خارج العالم الشرقمتوسطي: في آسيا (ايران والهند والبقاع المنغولية ـ التركستانية) حيث انتشر فيها الاسلام والحضارة الشرقمتوسطية ذات الرداء العربي ـ الاسلامي. كذلك امتدت هذه الحضارة نحو جنوب أوربا (بلاد الأندلس وصقلية). ومنذ ذلك الوقت شاعت بين شعوب العالم الشرقمتوسطي اللغة العربية والدين الاسلامي، بالإضافة الى غلبة العنصر العربي على البنية العقلية للشعوب الشرقانية بحيث شاعت كلمة «عرب» في تسمية هذه الشعوب..

يمكننا تقسيم المراحل التاريخية التي مر بها العالم الشرقمتوسطي حسب العصور التالية:

1 ـ **من 4000 حتى بضعة قرون ق. م**: العصور التاريخية والحضارية الأولى، في وادي النهرين ووادي النيل وبلاد الشام، ثم امتداد تأثيرهما الى باقي أجزاء العالم الشرقمتوسطي في اليمن وشمال افريقيا. وفي المرحلة الأخيرة من هذه العصور انبثقت أولى التيارات التوحيدية الثقافية، ومن اهمها الابجدية الكنعانية والديانة اليهودية في فلسطين كتعبيرعن التقارب الحضاري بين شعوب العالم الشرقمتوسطي.

2 ـ **من بضعة قرون ق. م حتى القرن السابع ب. م**: عصور السيطرة الأجنبية (الايرانية والاغريقية والرومانية والأثيوبية) على جميع أجزاء العالم الشرقمتوسطي. وتميز أيضاً هذا العصر بانبثاق المسيحية كدين يعبر عن الحاجة للتوحد الروحي والسياسي للشعوب الشرقمتوسطية.

3 ـ **بين القرن السابع ب. م والقرن 13**: عصور الحضارة العربية الاسلامية وانتشار القبائل العربية واندماجها في الشعوب الشرقمتوسطية التي تبنت الاسلام واللغة العربية وصنعت حضارة شرقمتوسطية منفتحة على جميع حضارات البشرية.

4 ـ **بين القرن 13 والقرن العشرين** : العصور المظلمة والسيطرة الأجنبية على العالم الشرقمتوسطي، العثمانية والايرانية ثم الأوروبية.

5 ـ **القرن العشرين**: عصر النهضة والاستقلال ونشوء جامعة الدول «العربية» الشرقمتوسطية وبروز العالم الشرقمتوسطي في الساحة العالمية ككتلة جيوسياسية ينطق أغلب سكانها باللغة العربية وتعتنق أغلبيتها الدين الاسلامي، وتمثل امتداداً حضارياً عريقاً ومقابلا للكتلة الأوروبية الواقعة على الضفاف الغربية للبحر المتوسط.

علماً أن هذا العالم الشرقمتوسطي يتكون من العديد من الأوطان والشعوب المتمايزة في تاريخها ولهجتها وتكوينها السياسي، لكنها جميعاً تشترك في قواسم تاريخية ـ جغرافية ـ ثقافية، ولغة عربية موروثة منذ القرن السابع وجماعات لغوية مختلفة : بربر وأكراد وشركس وتركمان وأفارقة، وغيرهم. الاسلام (بطوائفه المتعددة) هو الدين الغالب على أبناء العالم الشرقمتوسطي، بالاضافة الى طوائف مسيحية ويهودية وصابئية وغيرها موروثة منذ عصور قديمة. وتوجد مصالح اقتصادية وسياسية تم التعبير عنها من خلال تكوين جامعة الدول الشرقمتوسطية، وانبثاق الحركة التوحيدية الشرقمتوسطية الداعية الى تقارب وتعاون هذه الدول والشعوب، على غرار المجموعات الجيوسياسية الأوروبية والأمريكية وغيرها. علماً أن تسمية (شرقمتوسطي) تترجم الى الأوروبي بـ(EST MEDITERANEEN).

أخيراً، نعرف ونعترف أن مقترحنا هذا قد يثير الاستغراب أو الابتسام لدى البعض، فاننا في كل الأحوال لا نبتغي غير اثارة التساؤل والتفكير في بديهيات تتطلب الجرأة في مناقشتها ومراجعتها بدلاً من تقديسها ثم تدمير الأوطان وخوض الصراعات والحروب بين الأشقاء بسببها!

مع الوحدة العربية.. ضد القومية العربية
العروبة السياسية بين «حق العرق» و «حق الأرض»

إن الدول الوطنية التي تأسست في البلدان العربية وخصوصاً في بلدان المشرق العربي (الهلال الخصيب) بعد الحرب العالمية الأولى، قامت منذ البدء على أساس خاطىء يعتمد الفلسفة التالية : «إن الوحدة ضد التنوع.. وإن تجاهل الجزء وكبته سيؤدي الى ذوبانه في الكل..». وقد اتخذت هذه الفلسفة سلاحاً لها مفهوم «القومية العربية» التي عملت على تجاهل حقيقة التنوعات السكانية لمجتمعات بلدان المشرق. المشكلة ليست في الإقرار بحقيقة وجود هذه «العروبة» التي تجمع الشعوب العربية بروابط ثقافية ولغوية وتاريخية وجغرافية اضافة الى المصالح السياسية والاقتصادية. إن روابط العروبة هذه ايجابية ومقبولة ما دام هدفها جمع شمل البلدان العربية وتقريبها وتوحيدها ولنا في هذا نموذج الوحدة الأوروبية. لكن المشكلة هو سيادة المفهوم «العرقي» أو ما يسمى بالمفهوم «القومي» لهذه العروبة، أي التأكيد على شرط الأصل «القبائلي التاريخي» الذي يعتقد ويُفترض أنه متوفر في جميع الناطقين بالعربية! على هذا الأساس تمت محاربة وقمع جميع الطروحات التي تطالب باحترام التنوعات السكانية والثقافية الأخرى تحت ستار : «مكافحة الشعوبية» ثم محاربة جميع الطروحات التي يمكن أن تؤكد على الأصالة الوطنية باسم : «مكافحة الميول القطرية».

لقد تجلى هذا الفهم «العرقي القومي» للعروبة بقياس وطنية المواطن بمدى «أصالته العربية» واعتبار المواطنة والانتماء للوطن حسب ما يسمى بـ «حق العرق والقومية» وليس على«حق الأرض والوطن». لقد ابتدعت الانسانية منذ القدم وكذلك الديمقراطيات الغربية مفهوماً يستحق الاستشهاد به : «حق الأرض» أي أن الانسان يمتلك حق الحصول على المواطنة والجنسية بمجرد ولادته على أرض الوطن أو عيشه لسنوات معينة في الوطن. بناءً على هذا يتم منح الأجانب الجنسية مجرد ولادتهم أو زواجهم بمواطن أو مواطنة أو إقامتهم فترة معينة. إن حق الانتماء للأرض أقوى من حق الانتماء للقومية والسلالة العرقية وهذا مالم تعترف به العروبة السياسية لحد الآن.

إن سيادة عقلية الانتماء القومي العرقي أدت الى ضعف الانتماء الى الأرض وتاريخها وثقافتها وناسها. بمعنى أن الحكومات لا تعامل المواطن والجماعات الوطنية على أساس

الانتماء للوطن والاقامة على أرضه والانصهار بتاريخه وثقافته بل على أساس الانتماء للتاريخ القبائلي العربي الحجازي القديم.

من أبسط الأدلة على هذه العقلية هو تعامل حكوماتنا في منح الجنسية للمواطنين. في حالة العراق مثلاً، استمرت جميع الحكومات العراقية منذ عام 1921 وحتى الآن على التعامل مع الكثير من الجماعات العراقية مثل الأرمن والآثوريين وكذلك مع الكثير من الشيعة من عرب وفيلية على اعتبارهم أجانب أتراكاً أو ايرانيين ورفض منحهم الجنسية وحتى طردهم من الوطن. لقد تجلت ذروة هذه السياسة العنصرية في أعوام الثمانينات عندما قامت الحكومة بطرد ما يقرب المليون عراقي (من الشيعة) الى ايران بحجة عدم امتلاكهم الجنسية العثمانية رغم أصالتهم الوطنية وتوطنهم في العراق منذ أجيال، بل إن الكثير منهم من عشائر ــ عربية «أصيلة عرقياً!». بنفس الوقت لا تتوانى هذه الحكومة من منح الكثير من الأشخاص غير العراقيين الجنسية العراقية بحجة أنهم عرب قادمون من بلد عربي! ثم التعامل مع الجماعات العراقية المختلفة بريبة واحتقار ما داموا لم يثبتوا انتماءهم الحقيقي للسلالة العربية. وعلى هذا الأساس أيضاً استمرت عمليات تعريب المناطق غير الناطقة بالعربية (كردية وتركمانية وسريانية) بتهجير السكان الأصليين وإحلال الناطقين بالعربية محلهم.

الحقيقة ان «حق العرق» هذا من صلب فلسفة الحركة الصهيونية لقد قامت اسرائيل على فكرة ان اليهودي أينما عاش ومهما كان تاريخه ووطنه وجنسيته فانه يمتلك «حق العودة» والتوطن في فلسطين باسم «حق العرق» أي الانتماء لما يفترض أنه «العرق اليهودي». ثم ان الصهيونية قد نجحت باستغلال الطروحات العروبية العراقية القائلة بأن جميع العرب من «أصل قبائلي عربي» توطنوا فلسطين وغيرها بعد الفتح العربي الاسلامي. على أساس هذا الفهم «العرقي ـ العربي والصهيوني» بررت الصهيونية طردها لشعب فلسطين باعتبار اليهود هم «عرقياً» من سلالة السكان الأصليين لهذه الأرض حسب التوراة، وان الفلسطينيين ما هم إلا من سلالة العرب القادمين من الجزيرة العربية وما عليهم إلا ترك فلسطين والعودة الى موطنهم الأصلي!

إن الخطاب العروبي فشل من الأساس في مواجهة الخطاب الصهيوني لأنه لم يناقض المنطق الصهيوني القائم على حق العرق. ان الخطاب البديل المطلوب هو الذي يؤكد على ديمومة وجود شعوبنا في أوطانها منذ الحقب البعيدة. وأن هذه الشعوب طيلة تاريخها استقبلت

الكثير من الجماعات والأديان واللغات، لكنها ظلت هي نفسها سليلة الأرض والتاريخ مهما اختلفت الأسماء واللغات والأديان. هذا يعني أن الفلسطينيين هم أبناء أرض فلسطين منذ التاريخ المجهول ثم وجود الكنعانيين ثم اليهود ثم الآراميين ثم العرب ثم الصليبيين. تتبدل الأسماء واللغات والأديان وشعب فلسطين هو نفسه لأنه شعب هذه الأرض التي تذوب في تاريخها الجماعات واللغات والأديان الجديدة. على هذا الأساس فان اليهود (أو الاسرائيليين) مهما كانت أصالتهم السلالية اليهودية المفترضة فانهم في أقصى الأحوال لا يمكنهم ان يكونوا سوى جزء من شعب فلسطين. إذا كان اليهود يبتغون العيش بسلام فعليهم مجاراة منطق التاريخ والقبول بكل بساطة بحقيقة انتمائهم للشعب الفلسطيني بدلاً من محاولة نفيه وطرده من أرضه وإلغاء تاريخه.

هذا هو التاريخ الأسطوري الذي فرضته علينا العروبة السياسية. ولم يدرك مفكرو العروبة بأنهم يتفقون دون وعي مع المشاريع الغربية والصهيونية. يبدو أن تحالفاً غربياً صهيونياً قد تم من أجل كتابة تاريخنا بالصورة التي تلائم المشاريع الاستعمارية القديمة والجديدة. إن الغربيين منذ الحروب الصليبية يكافحون من أجل دحض أية فكرة تقول بأن خصومهم هؤلاء «العرب المسلمون» هم أحفاد الذين صنعوا «الدين المسيحي» الذي تجهد أوربا على تصويره كدين روماني اغريقي. أما الصهيونية فإنها راحت تستغل هذا الهاجس الأوروبي القديم من أجل نفي فكرة أن يكون سكان فلسطين والمشرق الحاليين هم أحفاد الذين صنعوا اليهودية مثلما صنعوا من بعدها المسيحية ثم الاسلام، وبالتالي منح الشرعية التاريخية لاستيطان اليهود في فلسطين وطرد الفلسطينيين من وطنهم. ان الطرفين الغربي والصهيوني اتفقا على خلق قطيعة بدنية عرقية بين العرب الحاليين وأسلافهم صانعي الحضارات قبل الاسلامية، والتأكيد على وجود تواريخ عديدة لمختلف المذاهب والأديان والجماعات الثقافية اللغوية. كل هذا من أجل خلق التناقض التاريخي بين الناطقين بالعربية والجماعات السكانية الأخرى : بين العرب والبربر في المغرب، والعرب والنوبيين في السودان، والمسلمين والأقباط في مصر. أما في بلدان المشرق فان المشروع الصهيوني لن يجد شرعيته إلا بتفكيك المشرق الى دويلات مذهبية وقومية ودينية لكل منها تاريخها الخاص على غرار دولة اسرائيل العرقية.

إن فكرة النقاء العرقي (القبائلي) العربي التي أشاعتها العروبة السياسية، تبدو خرافة واهية عند وضعها تحت ضوء التاريخ. إن أية مراجعة لتاريخ المنطقة تثبت بصورة لا تقبل الجدل ان شعوب المشرق خصوصاً من أكثر شعوب الأرض تمازجاً واختلاطاً مع ما لا يحصى من

الشعوب والجماعات والأجناس السوداء والبيضاء والشقراء والصفراء والحمراء خلال الآلاف من الأعوام. ان موقع منطقة المشرق في وسط القارات الثلاث جعلها محطة لمرور واستيطان الكثير الكثير من الجماعات القادمة من آسيا وافريقيا وأوربا. والشعوب التي لم تأت المشرق غازية أو سائحة أو باحثة عن الرزق والتجارة، فإن أسلافنا تكفلوا بجلبهم كأسرى وعبيد ومماليك وجوار منذ فتوحات البابليين والآشوريين والفينيقيين حتى الفتوحات العربية. يكفي ملاحظة التاريخ الأموي والعباسي مثلاً حيث ظلت أسواق دمشق وبغداد خلال قرون تستورد الآلاف المؤلفة من العبيد (السود) والمماليك (البيض) والجواري من كل جنس ولون المجلوبين من المستعمرات والبلدان المفتوحة، بالاضافة الى الرقيق المستورد من بلدان آسيا وأوربا. يبدو أن سهولة شراء الرقيق وصلت حينذاك الى مستوى شراء حصان أو ماشية. طبعاً فإن هؤلاء البشر استوطنوا المشرق وتزاوجوا هم وأحفادهم وذاب نسلهم في السكان الناطقين بالسامية ثم العربية. بل إن بعض هؤلاء الرقيق تمكنوا من تكوين سلالات حاكمة منها سلالة المماليك «الشركس والشيشان» الذين حكموا مصر والشام عدة قرون، وقد سبق الأمر في العراق مع (المحاربين التركمان) زمن العباسيين وتكرر الأمر في بغداد أثناء الحكم العثماني مع المماليك السلاف والجورجيين.

من سلبيات العقلية العروبية

إن التشوهات التاريخية والعقلية التي خلقتها هذه العروبة السياسية قد أدت الى سلبيات عديدة في عصرنا الحديث، يمكن إيراد أهمها كما يلي :

أولاً ـ إن هذه العقلية العروبية كانت ولا تزال ضد الطبيعة والحقيقة التاريخية التي عاشتها شعوب المشرق وعموم العالم العربي منذ القدم وحتى الآن. الملاحظ في جميع الحضارات الكبرى التي قامت في منطقتنا انها كانت بصورة وأخرى تعتمد وتعترف وتستفيد من هذا التنوع الديني والسكاني (العرقي) والمذهبي. يكفينا مثلاً التمعن بالعصرين الأموي ثم العباسي خصوصاً، حيث وصلت الحضارة العربية الاسلامية الى ذروتها بسبب تلك الحرية التي توفرت لظهور التنوع العجيب في الأعراق والأديان والمذاهب والتيارات الفكرية التي لا تحصى. إن قمع هذا التنوع وتجاهله في العصر الحديث باسم الوحدة والأصالة القومية والعرقية كان هو السبب المباشر في تخلفنا وتمزقاتنا الروحية والسياسية والثقافية. ثم ان هذا الفهم الضيق للوحدة أدى كذلك الى هشاشة هويتنا الفردية والجماعية

وعدم امتلاك الثقة بالذات الوطنية التي تساعد على تقبل الحضارة «الغربية» دون توترات وتمزقات فردية وجماعية. ان التأكيد على مسألة التنوع والاختلاط هذه ليس الهدف منها أبداً التقليل من أصالة شعوبنا وعراقة وجودها في المنطقة، بل العكس الغاية من ذلك هو تبيان حقيقة أن التنوع والتعددية الثقافية والسكانية من الميزات التاريخية الأصيلة والدائمة في مشرقنا وعالمنا العربي. ثم ان الخوف من الاعتراف بالتنوع أدى تلقائياً الى تهيئة احتكار السلطة من قبل أقليات طائفية ودينية تجعل من شعار الوحدة والخوف من التفتت مبرراً لعزل الجماعات الوطنية الأخرى. جميع تجاربنا التاريخية تكشف لنا ان عدم الاعتراف بهذا التنوع وتجاهله وكبته كان دائماً سبباً لتخلفنا وتمزقنا وان الاعتراف بهذا التنوع والتعددية مع التأكيد على «التوحد والمركزية السياسية والثقافية» كان السبب الأول في ازدهارنا وتماسكنا ووحدتنا.

ثانياً ـ إن هذه العروبة ومفهومها التوحيدي الكلاني، لم يلغ فقط حقيقة خصوصية كل بلد عربي عن الآخر، بل ألغت كذلك حقيقة خصوصية كل منطقة اقليمية عربية عن الأخرى. لقد جرى القفز العجائبي على منطق الجغرافية والتاريخ في جميع التجارب الوحدوية العربية. كأن يتوحد العراق مع اليمن الواقعة في أقصى جنوب الجزيرة، في الوقت الذي لا زالت فيه الحدود مغلقة تماماً بين سورية والعراق منذ عشرات الأعوام وحتى الآن، بصورة لم تحدث بين بلدين في الكرة الأرضية أبداً! ثم تتوحد ليبيا مع سوريا في الوقت الذي تسود حالة الاحتراب مع الدول المجاورة! إن من أول شروط عقلنة مفهوم التقارب والوحدة في العالم العربي، هو الاعتراف بحقيقة وجود مناطق اقليمية مختلفة ومتمايزة في الجغرافية والتاريخ والخصوصيات السكانية والمذهبية والعقلية. إن تجربة الاتحاد بين بلدان المغرب العربي يمكن أن تكون دليلاً ايجابياً في هذا المجال. لماذا مثلاً يخاف الجميع من الحديث علناً من أن العلاقة بين سوريا ولبنان (وكذلك مع فلسطين والأردن، بالاضافة الى العراق) لا تعتمد أساساً على رابطة العروبة، بل على رابطة أعمق وأقرب بكثير من هذه العروبة، أي رابطة الأرض والتاريخ المشترك الذي سبق العروبة بآلاف الأعوام. على هذا الأساس يبدو من المعقول أولاً الاعتراف بوجود المجموعات الاقليمية التالية : مجموعة بلدان المغرب العربي، مجموعة بلدان النيل (مصر والسودان)، مجموعة بلدان الجزيرة العربية، ثم مجموعة بلدان المشرق العربي (بلدان الهلال الخصيب). وكل مجموعة من هذه البلدان تستحق أولاً التقارب والتضامن والتفاهم فيما بينها على غرار

تجربة الاتحاد المغاربي. وهذه هي المرحلة الأساسية التي يجب أن تسبق كل حديث عن «الوحدة العربية الكبرى»!

ثالثاً ـ إن هناك ما هو أكثر بديهية ووضوح في هذه الممارسة العروبية الساذجة، وهو الموقف المعلن لجميع الحركات العروبية بعدم الاعتراف بالحدود السياسية للبلدان العربية، وتكرار القول بأنها «حدود مزيفة ومصطنعة». هذا يعني بكل بساطة التضحية بالانتماء للأرض والوطن باسم الانتماء لهذه «الأمة العربية» الأسطورية التي خلقتها أوهام الحالمين. هذا الموقف المحتقر لحدود البلدان العربية سمح للحركات والأنظمة «العروبية» بالتدخل المباشر في شؤون الدول الأخرى وسيادة عقلية التآمر والاحتراب في التعامل بين الدول العربية. وكان من المفروض بدلاً من هذه العقلية التدخلية أن تسود عقلية أكثر واقعية واعتدالاً تعتمد مبدأ التضامن والدعم والاعتراف المتبادل وتشجيع التقارب في كل المجالات. ان رفض مبدأ التدخل وقيام الحركات السياسية «القومية» ذات الفروع «القطرية»، هذا لا يعني أبداً رفض مبدأ التضامن والتفاهم بين الجماعات والنخب المختلفة في البلدان العربية. انه أمر معقول جداً تكوين الاتحادات النقابية والمنظمات والجمعيات الرياضية والثقافية والفنية ودور النشر والصحف التي تجمع بين بلدان كل مجموعة اقليمية عربية، وبين المجموعات الاقليمية ككل. بل ليشمل التقارب أيضاً الأحزاب الوطنية المختلفة ذات المبادىء المتقاربة مع التشديد على تجنب التدخل وفرض الوصاية «القومية العليا». هذا يعني عدم الاكتفاء بتطوير نموذج «جامعة الدول العربية» كمؤسسة واقعية للتقارب والتوحد، بل يضاف اليها كذلك «جامعة الأحزاب والمنظمات النقابية العربية» كمؤسسة شعبية للحوار والتقارب بين الشعوب العربية. إن مثل هذا الأمر واضح في التجربة الأوروبية، حيث تتكون منظمات للتنسيق والتضامن والتشاور بين الأحزاب الأوروبية المتشابهة، مثل الأحزاب الديمقراطية المسيحية، والأحزاب الاشتراكية، بالاضافة الى البرلمان الأوروبي المشترك ومؤسسات حقوق الانسان وغيرها.

رابعاً ـ بسبب هذه العصبوية العرقية التي نشرتها العروبة السياسية، انتشرت كذلك التيارات «العصبوية» القومية والدينية والمذهبية والقطرية المعادية لكل ما هو «عربي». هناك مثلاً «دعاة الفرعونية والقبطية» في مصر اللذين وصل بهم الأمر الى حد المطالبة بإلغاء اللغة العربية. وهناك نفس الشيء «دعاة البربرية الأمازيغية في الجزائر والمغرب» اللذين يعتبرون

أشقاءهم الناطقين بالعربية «أجانب غزاة» ويفضلون استخدام الفرنسية على العربية. وهناك أيضاً دعاة «العراقوية البابلية والآشورية» الذين يجاهرون بعدائهم لكل ما هو عربي. ثم هناك دعاة «كردستان الكبرى» الذين يطالبون بكل شمال العراق وسوريا. وهناك دعاة «الفينقية اللبنانية والأمة المارونية» ويضاف الى هؤلاء جميعاً دعاة «الأمة الاسلامية» الذين يقفزون على جميع شروط التاريخ والجغرافية والثقافة ويطالبون بالوحدة مع ايران وباكستان في الوقت الذي يرفضون بشدة أي حديث عن الوحدة العربية!

يمكن تفهم جميع هؤلاء في معاناتهم من كابوس «القومية العربية» التي حاولت أن تمسخ جميع الخصوصيات الجغرافية والتاريخية والدينية واللغوية باسم الانتماء العرقي القبائلي العربي. لكن رفض «القومية العربية» لا يجب أن يعني أبداً معاداة الشعوب العربية والناطقين بالعربية، واللجوء للانعزالية الوطنية والطائفية والدينية والعرقية. ان الاعتراف بالخصوصيات الوطنية واللغوية والدينية لا يعني أبداً رفض حقائق التاريخ والجغرافية والثقافة التي تؤكد أن بلدان العالم العربي ظلت تعيش حتمية التقارب والتمازج والتوحد منذ آلاف الأعوام قبل الفتح العربي الاسلامي، وما التوحد الحضاري البشري الذي ساد زمن الخلافة العربية الاسلامية إلا مرحلة طبيعية من التطور التاريخي الذي حتمته ظروف التوحد الجغرافي والتقارب الحضاري البشري منذ فجر التاريخ.

التاريخ يعطينا شواهد على هذه العلاقة الحتمية بين الانتماء الوطني والانتماء القومي. محمد علي باشا والي مصر لم يكن وطنياً عربياً ولا فكرياً عروبياً (إنه ألباني الوطن وعثماني الانتماء)، لكنه عندما توطن في مصر وأصبح حاكمها قام بفتوحاته القومية نحو السودان وبلاد الشام والجزيرة العربية. خضوعه اللاشعوري لإرادة مصر (دولة وتاريخ) حتمت عليه هذا الطموح بتكوين امبراطورية عربية، كأنه بذلك يلبي حاجة التاريخ والجغرافية بأزلية التواصل والتوحد بين بلدان وشعوب المنطقة. ويمكن ان نضع في نفس السياق محاولات جمال عبد الناصر الوحدوية التوسعية. لكن اختلاف جمال عن محمد علي، انه كان واعياً لهذه الضرورة التاريخية وبالتالي الحاجة الى أيديولوجيا عروبية (الناصرية) تحمي وتبرر هذا الطموح المصري بالتوسع والتوحد مع بلدان المنطقة. هذا المثال يبين مدى سذاجة الطروحات القطرية التي تتهم الانتماء العرقي والاتجاه العروبي وحده بالمسؤولية عن هذه الطموحات الوحدوية.

انه سؤال يستحق التفكير حقاً، لو افترضنا ان التاريخ ارتأى ان تظل مصر قبطية ــ مسيحية، فهل هذا يعني انه كان بالامكان ان تتجنب الصراع مع اسرائيل؟ لو اعتمدنا على

تاريخ مصر والعلاقة المتوترة بين الفراعنة والعبرانيين، ثم الطموح المصري (الفرعوني القبطي) بالتمدد والتوسع والاندماج مع بلاد الشام والعراق والجزيرة. بالاضافة الى هذا، تأثير الخلاف بين المسيحية الشرقية القبطية مع اليهودية المنغلقة المتعصبة، ثم الأهم من كل هذا حتمية الصراع بين الانتماء المصري للمشرق وافريقيا والعالم الثالث وانتماء اسرائيل للغرب وامريكا والعالم الصناعي، كل هذه الأمور تؤكد على حتمية الصراع القبطي الاسرائيلي بضراوة قد تفوق ضراوة التيار العروبي الناصري (المسلم العربي).

التضامن والتوحد العقلاني

إن رفض العروبة السياسية وأساطيرها العرقية لا يعني أبداً رفض مبدأ التقارب والتفاهم والتضامن بل حتى التوحد الديمقراطي بين البلدان العربية. على العكس، إن رفض المفهوم التبسيطي العرقي للعروبة هو رفض لحالة الاحتراب والتشرذم السائدة بين البلدان العربية بسبب عقلية التآمر والاحتراب التي خلقتها هذه العروبة. إن بلداننا المحكومة بهذه الحركات «القومية» فشلت حتى بإقامة علاقات طبيعية (وليست قومية) فيما بينها. بل إنها على العكس خلقت حالة من التنافر والتباعد وقطع العلاقات وغلق الحدود منذ عشرات السنين وحتى الآن. إننا بحاجة ماسة جداً الى استلهام تجربة الوحدة الأوروبية التي بدأت واستمرت وتطورت من دون هذه الهلوسات «القومية» والمزايدات والمؤامرات التدخلية، وحتى من دون أية تنظيمات «قومية» كبرى تحتقر الحدود «المصطنعة» وتبرر التآمر والتدخل والاحتراب.

إن شعوب العالم العربي تمتلك عاملاً مهماً يمنحها الأفضلية في تحقيق التقارب أكثر بكثير من حالة الشعوب الأوربية: عامل اللغة والثقافة العربية المشتركة التي خلقت وتخلق الوحدة الروحية والذهنية بين جميع شعوب العالم العربي رغم الحدود وعقلية التآمر والاحتراب السائدة بين الحكومات. يتوجب التأكيد على أن وجود الثقافة واللغة العربية لا يعني أبداً أنها خاصة فقط بـ «العرب المنحدرين من السلالات العربية النقية» كما أوهمتنا الحركات العروبية واستغلتها الحركات «العرقية والقومية» المضادة للعروبة. العربية هي لغة وثقافة شعوب البلدان العربية بجميع تنوعاتها السكانية والدينية والمذهبية. بمعنى أوضح، مثلاً إن المواطن الناطق بالعربية في المغرب أو الجزائر ليس بالضرورة أن يكون من «العرق» العربي بل

هو مواطن أصيل في وجوده مثل أخيه البربري الناطق بالأمازيغية. ونفس الحالة تنطبق على جميع البلدان العربية.

يلاحظ مثلاً في تجربة الوحدة الأوروبية، أنه من المعروف عن الجماعات السكانية التي تعتبر «أقلية لغوية أو مذهبية» في بلدها هي التي تصوت أكثر وتتحمس للاسراع في قيام الوحدة الأوربية، لأن هذه الوحدة سوف تخلص هذه «الأقليات» من شعورها بثقل «الأغلبيات» ولتصبح جميع الفئات خاضعة للدولة الأوروبية الكبرى المتعددة الأعراق والشعوب والمذاهب. أما نحن فان الفهم العروبي العرقي للوحدة العربية قد خلق الخوف في الجماعات التي تحس بنفسها كأقلية سكانية أو دينية، لأن الوحدة العربية صورت منذ الأساس على أنها تحقيق لسيطرة «القومية العربية» وتذويب للفئات المختلفة الباقية. إن شعور القبطي في مصر، أو النوبي والزنجي في السودان، أو الكردي والتركماني والسرياني والشركسي والأرمني في العراق والشام، بانتمائه لوطنه وأصالته التاريخية في هذه الأرض سوف يبرر لجميع هؤلاء تمسكهم باللغة العربية كلغة تاريخية وطنية لا تمثل أي عرق أو قومية أو انتماء قبائلي أسطوري. هذا الشعور بالأصالة سيدفع الجميع الى التمسك بمبدأ التعاون والتقارب وحتى التوحد بين بلدان العالم العربي، مثلما يفعل أي مواطن أوروبي مهما كان مذهبه أو لغته بالتمسك بالوحدة الأوروبية.

إن الوحدة التي ترفض التنوع والتعدد لا تؤدي إلاّ الى التشرذم. كذلك التنوع والتعدد الذي يرفض التضامن والتوحد لا يؤدي إلاّ الى الضعف والاحتراب. خصوصاً وأننا في عالم تقوده الامبراطوريات والوحدات الجيوسياسية الكبرى التي لا ترحم الضعيف والصغير مهما كان بعيداً منعزلاً.

بلدان الهلال الخصيب والهوية المنسية

تاريخ صراع الأقطاب حول منطقة المشرق

إن العلاقات بين الأوطان محكومة أساساً بشروط الجغرافية والبيئة ؛ وبما أن هذين العاملين ثابتان على مر التاريخ فإن طبيعة العلاقات بين الأوطان تتمتع بديمومة وثبات «نسبي» رغم تغير الأديان والحضارات والمعتقدات.

منذ فجر التاريخ وحتى الآن تميزت منطقة المشرق «الهلال الخصيب» بالوحدة الحضارية والسكانية السامية ـ العربية ، رغم انقسامها الى طرفين متمايزين جغرافياً وسياسياً : الطرف

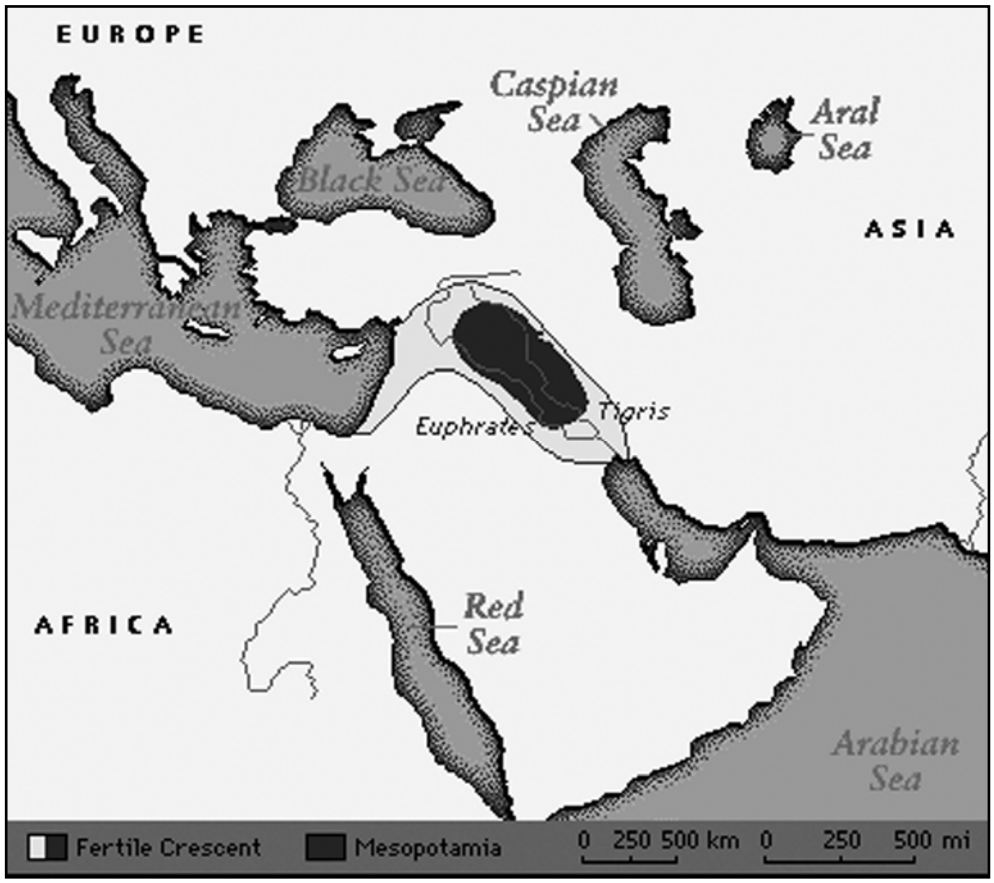

الهلال الخصيب

الشرقي أي العراق بلاد النهرين بخصوصيته النهرية التي حتمت قيام دولة موحدة لادارة النهرين وحياة السكان التي تعتمد عليهما بشكل أساسي ؛ ثم الطرف الغربي أي الشام سوريا الطبيعية (حالياً سوريا ولبنان وفلسطين والأردن) التي اعتمدت أساساً على البحر المتوسط والتوسع التجاري والحضاري على ضفافه، مع وجود تنوع في التضاريس الجغرافية الداخلية أعاقت قيام دولة موحدة على غرار النهرين. ان الجوار والتداخل الجغرافي بين النهرين وسوريا خلق وحدة حضارية وسكانية مستمرة منذ فجر التاريخ وحتى الآن. ثم ان موقع المشرق فعلاً في نقطة التقاء آسيا وافريقيا وأوربا، جعله نقطة التقاء لحضارات هذه القارات الثلاث. رغم سيادة اللغة السامية ــ العربية إلا أن هذا المشرق استوعب ما لا يحصى من الجماعات الآسيوية التركستانية والايرانية والكردية والأرمنية، كذلك الأوروبية «الاغريقية والرومانية»، بالاضافة الى الجماعات الافريقية «المصرية والبربرية والنوبية والزنجية». لكن هذه الجماعات كانت سرعان ما تمتزج بالأغلبية السامية ـ العربية وتتبنى حضارتها ولغتها السائدة.

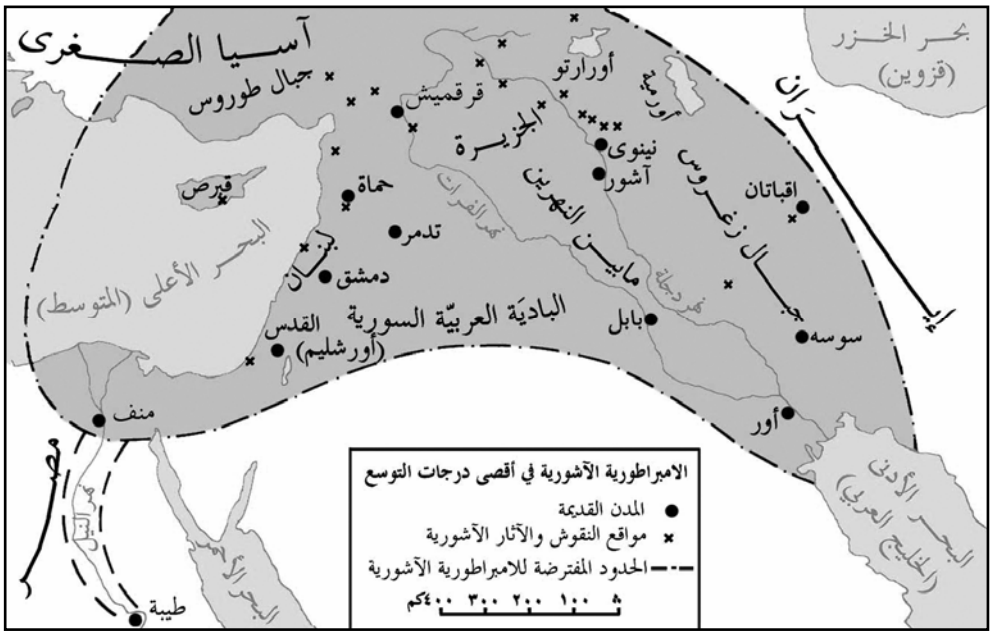

طيلة التاريخ، ظلت الدول العراقية تميل للتوسع نحو ساحل المتوسط الشامي

إن هذا الموقع الجغرافي الوسطي بين القارات التاريخية الكبرى قد لعب الدور الحاسم في تاريخ المشرق وتكوينه السياسي والسكاني والعقلي. الميزة الأساسية لمنطقة المشرق أنها شكلت منذ القدم المحور الذي تدور حوله أقطاب «منطقة الشرق الأوسط» بتنوعاتها الحضارية والسكانية والجغرافية القادمة من آسيا وأوربا وافريقيا. لقد شكل وادي النهرين بوابة المشرق نحو الحضارات الآسيوية الايرانية الهندية الصينية، وشكلت الشام «سوريا الطبيعية» بوابة المشرق نحو حضارات البحر المتوسط بقسمها الشرقي الحامي (المصري البربري) وقسمها الاوروبي (الاغريقي الروماني). ليس صدفة ان الاسلام لم يأخذ امتداده الحضاري المعروف إلا بعد انتقال الدولة الاسلامية الى المشرق. الحضارة العربية الاسلامية قد انطلقت من العاصمة دمشق ثم بلغت ذروتها في العاصمة بغداد. في هاتين المدينتين تمكن أهل المشرق من لعب دورهم التاريخي الحقيقي وجعلوا من منطقتهم مركزاً لحضارة عالمية كبرى تمتد على مدى القارات الثلاث.

من أجل معرفة الطبيعة السياسية والعقلية لمجتمعات المشرق ودوله، يتوجب معرفة طبيعة الأقطاب المجاورة المحيطة بهذا المشرق وماهية الثوابت التاريخية التي تتحكم بهذه الأقطاب. يمكن عد هذه الأقطاب الكبرى المحيطة بخمسة : (القطب الايراني، القطب المصري، القطب الأناضولي، القطب الجزيري الحجازي، القطب الأوروبي) هذه الأقطاب بمجموعها مع المشرق اصطلح على تسميتها بمنطقة «الشرق الأوسط» عدا القطب الأوروبي الذي ظل على علاقة مباشرة بالمشرق من خلال البحر المتوسط .

القطب الايراني

ايران هي الجارة الكبرى المشرفة مباشرة على المشرق عبر سلسلة جبال زاغروس طول الحدود الشرقية لوادي النهرين. تمتد هذه الحدود جنوباً من خليج البصرة حتى الشمال حيث جبال ارمينيا وطوروس الأناضول. إن التجاور الجغرافي الحميم بين الهضبة الايرانية والعراق كان بالحقيقة تجاور النقيضين: ايران، رأس الكائن الآسيوي المرتكز على الهضبة الايرانية وجبالها، والممتد بين هضاب وجبال أواسط آسيا الآرية التركستانية حتى حدود الهند والصين وروسيا. لبثت ايران دائماً ترمق بشغف وحماس ناحية الغرب حيث وادي النهرين وشواطىء سوريا الواعدة. أما العراق، رأس الكائن المشرقي المرتكز على نهري دجلة والفرات والمنفتح على سهول سوريا الخصبة حتى شواطىء المتوسط. لبث العراق دائماً يرمق بخوف وحذر

حدوده الشرقية حيث تتربص شعوب ايران وآسيا بانتظار فرصة للانحدار والهبوط واجتياح النهرين كما فعلت طيلة التاريخ!

منطقة المشرق العراقي الشامي (الهلال الخصيب) والاقطاب المنجذبة اليها طيلة التاريخ

ايران ظلت دائماً أشبه بالعاشقة الولهة الباحثة عن كل السبل للسيطرة على الحبيب؛ والعراق ظل دائماً ذلك اليافع المتمرد الهارب من سيطرة الحبيبة. جبال زاغروس ترتفع على النهرين الى مسافة تبلغ أحياناً (4548 قدماً ـ جبل زارد). الهضبة الايرانية وجبالها منحت الايرانيين دائماً قوة حربية حاسمة من خلال الانحدار العسكري والاجتياح السريع. ايران ذات الأراضي الجبلية وصحراء «لوط» القاحلة ظلت دائماً ترمق بإعجاب وشهية الحضارات الكبرى الناشئة في الوادي الخصيب وما تنتجه من ثروات وخيرات وعلوم ومعتقدات. ثم إن موقع العراق ظل ضروريا للوصول الى الشام وشواطىء المتوسط.

على مدى التاريخ لبثت الشعوب الرعوية الآسيوية (الآرية ـ التركستانية)، ما إن تحط الرحال في الهضبة الايرانية قادمة من أواسط آسيا حتى تفتح عيونها على وادي النهرين بنهريه وأراضيه السهلة الخصبة الغنية فتنحدر عليه بسهولة من أعالي زاغاروس. من ابرز هذه الشعوب والجماعات التي اجتاحت العراق منذ عصر السومريين وحتى القرن الماضي:

عيلام، غوت، كوش، حوريين، ميد، اخمين، بارث، ساسان، بعد الاسلام برز : البويهيون والأتراك السلاجقة، المغول، ثم الصفويون، لقد تعددت فترات الاجتياح والسيطرة الايرانية الآسيوية وتراوحت بين عشرات السنين حتى عدة قرون. أما المجموع الكلي لهذه الفترات فيبلغ عشرات القرون المتقطعة. أطول هذه الفترات كانت سيطرة البارثيين والساسانيين التي دامت من القرن الأول ق. م حتى القرن السابع والفتح العربي.

على مر التاريخ ظل الهم الأول والرئيسي للدولة العراقية حماية حدودها الشرقية لدرء خطر الاجتياحات الايرانية الآسيوية. جميع الأنظمة العراقية تجنبت مغامرة السيطرة على ايران بسبب صعوبة الصعود الحربي نحو جبال زاغاروس والهضبة الايرانية. وكان أقصى ما تفعله الدولة العراقية انها تقوم باجتياحات سريعة وعمليات تأديب للدول والقوى المشاكسة في ايران. (يبدو ان صدام لم يفطن لهذه الحقيقة التاريخية الجغرافية فقام بمغامرته الحربية التي انتهت بكارثة). ان الدولة العربية الاسلامية هي الدولة «المشرقية» الوحيدة التي تمكنت فعلاً من عبور جبال زاغاروس وفرض السيطرة على الهضبة الايرانية وعموم آسيا الوسطى. وهذا امر استثنائي في تاريخ المشرق ويعود ربما أساساً الى العنفوان الحربي الذي كانت تتمتع به القبائل العربية الصحراوية القادمة تواً من بوادي الجزيرة العربية.

المسألة المهمة التي يمكن ملاحظتها أن ايران خلال جميع فترات احتلالها للعراق لم تستطع أبداً أن تفرض ثقافتها أو سكانها على النهرين، بل كان العكس هو الذي يحصل : في كل مرة تحتل ايران النهرين كانت تكتسب وتتبنى الحضارة العراقية : اكتسبت الكتابة المسمارية والثقافة السومرية منذ الألف الثالث ق. م، ثم الحضارة البابلية التي أثرت بصورة كبيرة على الثقافة الايرانية والديانة المجوسية. وصل الأمر في الحقبة الساسانية انهم جعلوا عاصمتهم في المدائن وسط العراق قريباً من بابل القديمة وصارت اللغة الآرامية (السريانية) العراقية- السورية هي السائدة ثقافياً في أنحاء الامبراطورية الفارسية مع بقاء اللغة البهلوية محصورة في البلاط الايراني. المسيحية النسطورية العراقية انتشرت حتى بين العائلة الملكية في ايران ونافست المجوسية. علماً ان هذه المجوسية فشلت تماماً بالانتشار بين العراقيين وبقيت محصورة بين الجاليات الايرانية المقيمة. الديانة المانوية البابلية انتشرت بزخم في ايران حتى أنها شقت الزرادشتية لتخرج منها الطائفة المزدكية التي جمعت بين المجوسية الايرانية والمانوية العراقية.

أتت بعد ذلك الحقبة الاسلامية لتصبح ايران مسلمة بعد أن سبقها العراق. لقد انتشر الاسلام في ايران أساساً بواسطة الجيوش العراقية البصرية والكوفية التي استوطنت ايران

خصوصاً في خراسان ونيسابور وقم، وشكلت أساس الجيش الخراساني الذي ساند الثورة العباسية. عندما ساد التشيع في العراق بدأت ايران السنية تدريجياً أيضاً تميل الى التشيع، حتى تمكن الصفويون أن يفرضوا التشيع في القرن السادس عشر. علماً أن الصفويين اعتمدوا على الفقهاء و«السادة» العراقيين واللبنانيين والبحرانيين لنشر المذهب الجعفري. ان فئة السادة في ايران (من بينهم الإمام الخميني) التي تتمتع بقدسية دينية وسياسية في الدولة والمجتمع، لا ينكرون من أنهم من أصول عراقية عربية (لبنانية وبحرانية وإحسائية) وينحدرون من نسل الإمام علي. لكن طبعاً هذا لا يقلل من حقيقة انتمائهم التاريخي والحضاري لإيران.

إن حاجة ايران للسيطرة على النهرين لم تكن مدفوعة بحقد وكبرياء قدر ما هي مدفوعة بعشق ورغبة بالذوبان والاندماج. أوضح صورة لمدى تعلق الايرانيين بالعراق تقديسهم وحبهم للأئمة والعتبات المقدسة في العراق. كم من الحروب خاضها الايرانيون ضد العثمانيين من أجل تحرير العتبات المقدسة؟ وكم هناك من الأساطير عن الجهود العجيبة التي ظل يبذلها الايرانيون من أجل دفن موتاهم في مقبرة النجف في العراق.

حقبة الشاه الأخيرة كشفت عن تجربة طريفة تستحق الاشارة اليها: عام 1975 في ظل المنافسة بين نظام الشاه ونظام البعث، قام الشاه بتكوين حزب حكومي حمل الكثير من سمات حزب البعث، بل حتى اسمه هو (حزب ريستاخ) ويعني (حزب البعث أو النهضة) في الفارسية!

إذن، مشاعر إيران نحو العراق ظلت دائماً مفعمة برغبة وحب وغيرة. العشق الايراني، نموذج للعشق الامتلاكي حيث تندفع الحبيبة باسم الحب للسيطرة على حبيبها. أما العراق، فيبدو أنه ظل دائماً رافضاً متهكماً من هذا «العشق». ظلت مشاعر العراق نحو ايران مفعمة بتوجس وحيرة مع بعض التعاطف والسخرية. تجربة الحرب مثال واضح لهذه الحالة: صدام حسين عندما اجتاح ايران كان أساساً مدفوعاً بالخوف والقلق من الثورة الايرانية وطموحاتها التوسعية. أرادها ضربة هوجاء خاطفة لإسقاط الثورة وإقامة نظام أكثر أماناً له. أما ايران فانها منذ أول الثورة راحت تعلن عن رغبتها بتغيير النظام في العراق وإقامة نظام اسلامي لانقاذ الشعب العراقي من «الكفرة». حتى الاستمرار بالحرب كان العراق يشن هجماته مدفوعاً بالخوف والأمل بايقاف الحرب مع التبجح السافر باعلان الحقد العنصري على الفرس «المجوس»؛ أما ايران فقد ظلت على العكس مستمرة حتى آخر رمق باسم الحب للشعب العراقي والعتبات المقدسة وتخليصه من (حكم الطغاة!!).

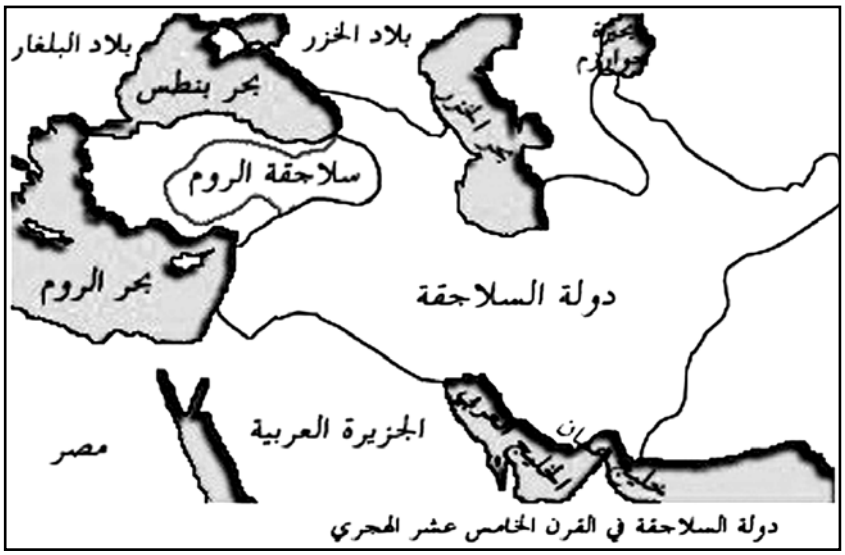

دولة السلاجقة في القرن الخامس عشر الهجري

الاجتياحات الآسيوية (التركستانية والايرانية) للعراق والشام..

بالنسبة لدور الشام في هذه الإشكالية فهو التالي: منذ فجر التاريخ استمرت ايران تكافح المستحيل لتجعل النهرين جزءاً من كيانها الحضاري وتركيبها السكاني لتبعده عن التأثير السامي ثم العربي القادم من سوريا وبادية الشام العربية. رغم القرون الطويلة من الاحتلال فشلت ايران تماماً في التأثير على التكوين السكاني والحضاري للعراق وبالتالي فشلت أيضاً في جعله جزءاً من حضارتها وسكانها. يعود هذا الفشل أساساً الى اختلاف الجغرافية والبيئة. كان من المستحيل على الشعوب الإيرانية الآسيوية ذات الطبيعة الجبلية من الحفاظ على كيانها السكاني الثقافي في أرض سهلية ومنخفضة مثل أرض النهرين. (ان اختلاف الجغرافية والبيئة أعاق العرب أيضاً عن تعريب ايران رغم استقرار الكثير من الجماعات العراقية والعربية فيها وفرضهم الاسلام والحضارة العربية المشرقية).

لهذا استمرت السيطرة الايرانية سيطرة عسكرية سياسية ولم تصل الى سيطرة حضارية سكانية. علماً أنه على مدى التاريخ استقر في العراق الكثير الكثير من الايرانيين والأكراد والتركستانيين وامتزجوا وتزاوجوا مع العراقيين. لا يمكن أبداً نكران حقيقة أنه في دماء جميع العراقيين هناك نسبة من مختلف الدماء الآسيوية. ونفس الأمر ينطبق على شعوب ايران ووسط آسيا اذ تمتزج فيهم نسبة مهمة من الدماء العراقية. لكن حضارة ايران وثقافتها ظلت دائماً آرية آسيوية، وحضارة العراق وثقافته ظلت دائماً سامية عربية مشرقية.

إذاً كان العائق الأكبر أمام ايران من أجل «تفريس العراق» هو الجماعات السامية ثم العربية القادمة من سوريا والجزيرة العربية: إما عن طريق بادية الشام وشمال الجزيرة العربية حيث تحط الرحال على ضفاف الفرات؛ وإما عن طريق شمال سوريا حيث تنحدر القبائل السورية من أعالي دجلة والفرات وتعمر شمال النهرين أولاً ثم تنحدر حتى الجنوب.

هنا بالضبط يكمن سر العلاقة بين الشام والعراق ودور ايران في هذه العلاقة. بمعنى أوضح أن العراق ظل دائماً متوجساً من السيطرة السياسية العسكرية المنحدرة من الشرق حيث زاغاروس وايران، وبنفس الوقت ظل مرتبطاً بسوريا حيث تمتد فيها جذوره الثقافية والسكانية والروحية. ايران حيث «العشق الامتلاكي» والخطر السياسي العسكري، والشام حيث «الارتباط الروحي والعقلي» وامتداد الجذر السكاني والحضاري.

القطب المصري

لو انتقلنا الى الجانب الشامي لوجدنا ان علاقة الشام بالعراق متأثرة بدورها بطرف آخر، أي «مصر» الجار الكبير الواقع على الجنوب حيث سيناء وساحل المتوسط ثم وادي النيل. يبدو أن هناك «بعض التشابه» بين التأثير الايراني على العراق والتأثير المصري على الشام. لكن الإقرار بهذا التشابه لا يمنعنا من التأكيد على وجود اختلاف كبير بين «علاقة ايران بالعراق» و«علاقة مصر بالشام».

إن العراق وايران رغم تمازجهما السياسي والحضاري فان التمازج الثقافي والسكاني ظل انفعالياً ولم يصل الى حد الانصهار والتوحد بل ظل التمايز والحفاظ على الخصوصية هو السائد في العلاقة، كما أوضحنا ذلك سابقاً. أما بالنسبة للشام ومصر فان العلاقات السكانية والحضارية بين الطرفين ظلت تميل نحو التقارب والتشابه مع مرور الزمن بسبب تشابه الجغرافية والبيئة بين سوريا ومصر، بالاضافة الى الانفتاح وتمازج سكاني تاريخي بين المنطقتين بحيث يصح القول أن «سكان مصر» منذ القدم وحتى الآن ما هم إلا مزيج تاريخي أصيل بين الجماعات السامية القادمة من الشام مع الجماعات الحامية البربرية القادمة من شمال افريقيا وبلاد النوبة «السودان». حسب اعتقاد تيار مهم من المؤرخين أن الشعوب السامية ما هي إلا فرع من الشعوب الحامية[*] (المصرية البربرية) وقد قدمت من شمال افريقيا بعد التصحر الذي حدث في الألف العاشر قبل الميلاد. وقد امتزجت هذه الشعوب الجديدة بسكان المشرق الأصليين من سومريين وغيرهم وخلقت ثقافة جديدة هي الثقافة السامية التي ظلت قريبة من الثقافة الحامية القديمة. ثم بعد ذلك بدأت بعض هذه الجماعات السامية المشرقية تنحدر من المشرق نحو الجزيرة العربية حتى اليمن وتمتزج بالشعوب الأصلية لتكون ثقافة جديدة هي الثقافة العربية المتفرعة من الثقافة السامية المشرقية.

المهم، من دون التوسع بالتفاصيل التي لا يسمح بها موضوعنا، نقول ان العلاقة السكانية (العرقية) بين أهل سوريا وأهل مصر علاقة سكانية ـ ثقافية قديمة جداً.

---

* نكرر ان هذه الشعوب لاتجمعها علاقات عرقية بل علاقات لغوية . الأصح إذن القول : الشعوب الناطقة بالسامية، والشعوب الناطقة بالحامية، والشعوب الناطقة بالآرية .. ألخ ...

مع نشوء الحضارة السامية (الكنعانية) ونمو النشاط التجاري للسوريين حول ضفاف المتوسط، بدأت موجات الهجرة السورية الى مصر (وشمال افريقيا). منذ ذلك الوقت وحتى الآن ظلت الجماعات السامية تأتي مصر قادمة من سوريا وشمال الجزيرة العربية. يمكن ذكر بعض الأمثلة على التأثير السوري منها سيطرة قبائل «الهكسوس» السورية على مصر لعدة قرون، تاريخ «اليهود» الفلسطينيين في مصر، انتشار المسيحية اليعقوبية السورية «القبطية» في مصر. يبدو أن الهجرات السامية كانت تضطر الى التوسع نحو سواحل شمال افريقيا عندما كان يصعب عليها الاستقرار في مصر بسبب قوة الدولة المصرية. مثال على هذه الجماعات الفينيقية (الكنعانية اللبنانية) التي تمركزت في قرطاجة (تونس) وعمرت سواحل ليبيا والجزائر والمغرب (بين القرن الثامن ق. م حتى القرن الأول ق. م). إن هذه الهجرات السامية وصلت الى ذروتها في عصر الفتح العربي الاسلامي وتعريب أقباط مصر وانتشار الثقافة العربية بلهجتها وخواصها الشامية. يمكن الاستشهاد كذلك بحالة قبائل بني هلال التي قدمت من الشام وشمال الجزيرة العربية عبر سيناء واستقرت في صعيد مصر زمن الدولة الفاطمية وبعدها نزحت الى المغرب وفرضت التعريب. أما في العصر الحديث فنلاحظ هجرة الشاميين (من سوريا ولبنان خصوصاً) منذ القرن الماضي ودورهم المعروف بالاسهام في النهضة المصرية الحديثة.

بالاضافة الى هذه العلاقات السكانية والحضارية بين المنطقتين فان سوريا ظلت تشكل أيضاً مصدر خطر على مصر بسبب قدوم الكثير من الغزاة الى مصر عبر سوريا وبالذات خطر الدول المختلفة القادمة من هضبة الأناضول مثل الحثيين والاغريق والبيزنط والصليبيين وأخيراً العثمانيين. كذلك هنالك خطر الهضبة الايرانية عبر العراق والشام حيث تمكن الفرس من القضاء تماماً على آخر الدول الفرعونية في القرن السادس ق. م، مباشرة بعد سقوط آخر الدول البابلية التي كانت مهيمنة على العراق وسوريا!

لهذه الأسباب جميعاً، بالاضافة الى ضعف الدول السورية بشكل عام فان مصر ظلت دائماً مدفوعة الى فرض سيطرتها على الشام سياسياً وعسكرياً. لم تكف مصر طيلة تاريخها عن العمل على مد نفوذها أو احتلالها للشام، منذ الفراعنة ثم البيزنط حتى العصور العربية الاسلامية مع آل طولون والفاطميين ثم المماليك حتى محمد علي باشا، وانتهاءاً بالوحدة المصرية السورية عام1958 .

القطب الجزيري «السعودي»

تمتد منطقة الجزيرة العربية على حدود المشرق شرقاً من خليج البصرة ومروراً ببادية الشام حتى خليج العقبة وصحراء سيناء. لبثت هذه المنطقة دائماً ضعيفة التأثير سياسياً وحضارياً بسبب ندرة الدول والمراكز الحضارية القوية فيها وذلك لوعورتها وموقعها الجغرافي المهمش والمعزول بحرياً عن العالم من ثلاث جهات، عدا الجهة الشمالية التي تحد المشرق. لكن جنوب الجزيرة (اليمن السعيد) ظل متميزاً بجباله وخصوبته وموقعه البحري الذي سمح له بالاتصال بالمصريين والأحباش من خلال البحر الأحمر، وكذلك بالايرانيين عبر خليج عمان. أما باقي الجزيرة فكانت في وسطها صحراء قاحلة تمتد من حدود اليمن جنوباً حتى بادية العراق والشام شمالاً. القسم الغربي (الحجاز) الممتد على ضفاف البحر الأحمر من خليج العقبة حتى اليمن، ظل خلال آلاف الأعوام على علاقة وطيدة مع سوريا التي نقلت اليه الحضارة السامية مع بعض المؤثرات المصرية والحبشية. وقد تجلى هذا الأمر بوضوح في القرون الأخيرة التي سبقت الاسلام مع نشوء الخط التجاري المعروف بين الشام واليمن عبر مدن الحجاز (مكة ويثرب). ليس صدفة أن ظهور الاسلام في الحجاز كان تعبيراً عن الامتزاج الحضاري بين التأثيرات المشرقية القادمة من الشام والعراق (المسيحية واليهودية والصابئية والمانوية) والتأثيرات اليمانية التي كانت تحمل بدورها الكثير من المؤثرات السامية والمصرية. أما شرق الجزيرة أي سواحل الخليج فإنها ظلت طيلة التاريخ على علاقة وطيدة مع جنوب العراق منذ السومريين حتى العصور الحديثة، وما انتشار القرمطية والتشيع في منطقة الخليج إلا دليلاً على عمق العلاقات البشرية والحضارية مع جنوب العراق، بالإضافة الى تشابه اللهجات والتقاليد بين المنطقتين. وفي معظم فترات الخلافة العربية والعثمانية ظل شمال الخليج مرتبط إدارياً بولاية البصرة.

إن تأثير الجزيرة العربية على المشرق بدأ يتضح في فترة ما بعد الميلاد عندما بدأت هجرات القبائل العربية نحو أطراف سوريا والعراق لتمتزج مع سكان المشرق وتتبنى حضارتهم المسيحية السريانية. بعد انبثاق الاسلام والفتح العربي لمنطقة المشرق تقاطرت القبائل والجماعات العربية على العراق وسوريا وامتزجت بالسكان الأصليين ونشرت بينهم اللغة العربية والاسلام. الملاحظ أنه رغم قدوم العرب المسلمين وجيوش الفتح من الجزيرة العربية إلا أن التأثير الثقافي

والسياسي لهذه المنطقة بدأ بالضعف بعدما انتقلت مراكز الخلافة الاسلامية الى دمشق والبصرة والكوفة ثم بغداد. سرعان ما تسلم أهل المشرق (السكان الأصليين ومعهم العرب الذين توطنوا وأصبحوا مشارقة) أجهزة الخلافة العربية وتطوعوا في جيوشها وضخوا في الاسلام واللغة العربية جميع ما ورثوه من حضاراتهم السالفة زمن الأمويين ثم العباسيين، رغم احتفاظ الحجاز (مكة والمدينة) بأهميتها الدينية والتاريخية لكنها فقدت دورها الحضاري والسياسي. ظل التأثير البشري للجزيرة من خلال هجرات القبائل العربية نحو المشرق ومصر وشمال افريقيا لكن من الناحية الحضارية والسياسية ظلت هذه المنطقة مرتبطة بمراكز الخلافة والحضارة في المشرق خصوصاً حتى علوم اللغة العربية نشأت وتمركزت في الكوفة والبصرة. إن الأغلبية الساحقة من العناصر التي لعبت دوراً مذكوراً في الحضارة العربية الاسلامية كانوا من سكان المشرق منهم العناصر المشرقية الأصلية المستعربة من مسلمين ومسيحيين ويهود وصابئة ومانوية، ومنهم العناصر العربية التي استقرت وتزاوجت وامتزجت مع أهل المشرق وصارت جزءاً من سكانه وحضارته. طبعاً لا ننسى كذلك دور جميع الشعوب التي تكونت منها الامبراطورية مثل الفرس والتركستان، بالاضافة الى المصريين (مسلمين وأقباطاً) والبربر واسبان الأندلس، لقد ساهم جميع هؤلاء في صنع الحضارة العربية الاسلامية.

في القرن التاسع عشر حاولت منطقة «نجد والحجاز» ان تخلق لها دوراً سياسياً دينياً شبيهاً بدورها القيادي أثناء الفتح الاسلامي من خلال الحركة الوهابية وغزوات الوهابيين لأطراف العراق وسوريا. لكن سليقة التاريخ والجغرافية أفشلت هذه المحاولة بسبب ضربات العثمانيين والمصريين لها فلبثت الوهابية محصورة في نجد فقط. تكررت المحاولة مرة أخرى بعد الحرب العالمية الأولى من خلال قيام شريف مكة وأبنائه بقيادة الثورة العربية ومحاولة إعادة عملية الفتح الاسلامي للمشرق. لكن هذه الثورة انتهت بانتقال العائلة الهاشمية الى عواصم المشرق وفقدانهم السلطة في الحجاز وعموم الجزيرة لصالح العائلة السعودية. من جديد ومنذ أعوام الستينات بدأت العربية السعودية بمحاولة القيام بدور قيادي ديني وسياسي ازاء منطقة المشرق وعموم العالمين العربي والاسلامي. هذه المحاولة ظلت ضعيفة التأثير من الناحية الثقافية والعقائدية بسبب الإمكانات «التاريخية» المحدودة في هذا المجال. لكن التأثير السياسي المهم الذي نجحت العربية السعودية بممارسته استند على الثورة النفطية الهائلة لنشر العقيدة الوهابية وبناء الجوامع ودعم الحركات الدينية والبنوك الاسلامية؛ كذلك عبر انشاء امبراطورية اعلامية جبارة تعتمد على كوادر صحفية ومثقفة بمعظمها من منطقة المشرق ومصر.

القطب الأناضولي

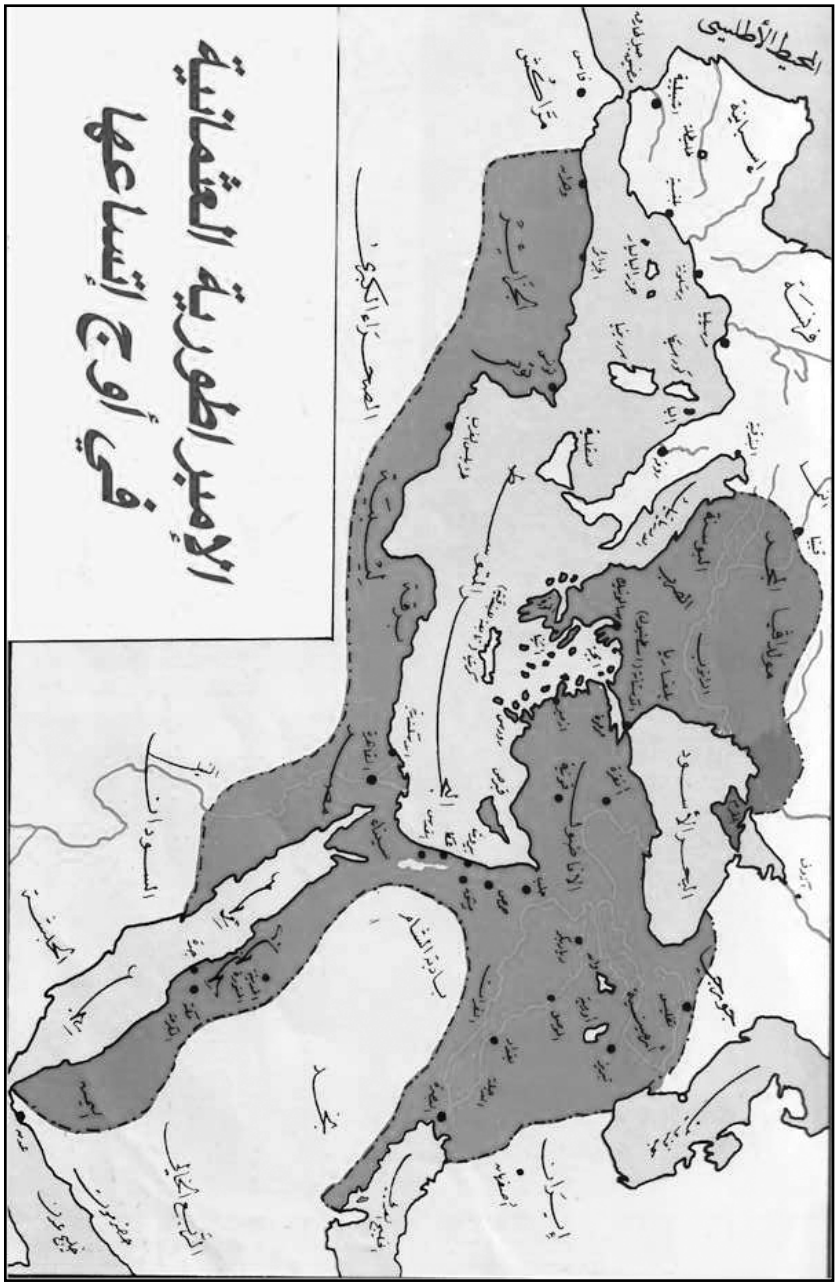

(الدولة العثمانية)

هذا القطب يقع في شمال منطقة المشرق حيث هضبة الأناضول (وهي تركيا الحالية التي ضمت اليها في هذا القرن مناطق ارمينيا وأعالي شمال النهرين التي تحولت الى مناطق كردية تركية حالياً). تفصل الأناضول عن الشام والنهرين سلسلة جبال طوروس. ان العوامل الجغرافية لهضبة الأناضول شبيهة بالهضبة الايرانية، لكن موقع الأناضول على ضفاف البحر المتوسط قلل من حدة حماستها في الاتجاه نحو الجنوب حيث منطقة المشرق. ان ارتفاع هذه المنطقة عن المشرق سمح لها كذلك بامتلاك سهولة في الانحدار والاجتياح العسكري. لقد ظلت الأناضول ذات تأثير سياسي عسكري واضح وتمكنت من فرض سيطرتها على النهرين والشام لعدة فترات متقطعة سواء بواسطة سكان الأناضول مباشرة (الحيثيين والبيزنط ثم العثمانيين اللذين سيطروا على المشرق لأربعة قرون)، أوبواسطة سكان اليونان وأوربا الشرقية القادمين عبر الأناضول: الاغريق (الاسكندر المقدوني، والدولة السلوقية) ثم الصليبيين الذين قدموا من أوربا عبر الأناضول.

الملاحظ أنه طيلة التاريخ ظلت هناك منافسة شديدة بين القطب الأناضولي والقطب الايراني للسيطرة على بلاد النهرين خصوصاً بالاضافة الى سوريا. هذه المنافسة بين القطبين تعود لعدة أسباب منها أن الهضبة الأناضولية تحد الهضبة الايرانية وتشترك معها بالطبيعة الجبلية وتشرفان على وادي النهرين وتتمتعان بسهولة اجتياحه العسكري. ان العراق يمثل بالنسبة للأناضول الممر التجاري الأساسي الذي يجب اجتيازه للوصول الى الخليج ومنه الى الهند، وخصوصاً أن الطريق عبر ايران صعب ومستحيل بسبب المنافسة ومناعة ايران الجبلية. ثم ان العراق ظل منذ فجر التاريخ يشكل بالنسبة لايران والأناضول وادي الخصب والخيرات ومركز الحضارات الذي طالما أثار شهية الجيران لاجتياحه والاستحواذ على خيراته والاستفادة من نتاجاته الحضارية.

لقد عاش وادي النهرين طيلة تاريخه في ظل المنافسة بين هذين الجارين الجبارين: منذ سقوط بابل وسيطرة الفرس الأخمينيين على النهرين عام 589 ق. م، بدأت المنافسة مع الاغريق المستقرين في اليونان والأناضول. تحول النهرين الى ساحة صراع بين الطرفين طيلة أربعة قرون. بعدها تمكن الايرانيون البارث من دحر الأغريق وفرض سيطرتهم على العراق عام (126 ق. م). بعدهم أتى الفرس الساسانيون عام (226 ب. م) حيث استمر العراق ساحة للمنافسة والحرب بين هؤلاء الساسانيين والبيزنطيين المستقرين في الأناضول وسوريا حتى

الفتح العربي الاسلامي في القرن السابع. منذ القرن السادس عشر تجددت هذه المنافسة واندلعت الحروب المدمرة بين الصفويين الايرانيين والعثمانيين المستقرين في الأناضول. خلال أربعة قرون تقريباً شهد العراق اجتياحه لعدة مرات من قبل الصفويين ثم انتزاعه من قبل العثمانيين، وتحول العراق الى ساحة صراع بين الأيرانيين والعثمانيين. لقد انعكست هذه المنافسة حتى على الوضع المذهبي في العراق: العثمانيون اعتنقوا المذهب السني الحنفي نسبة الى أبي حنيفة الكوفي العراقي «الإمام الأعظم». جهد الأتراك لدفع العراقيين الى ترك التشيع واعتناق المذهب الحنفي. أما الايرانيون فقد فضلوا منافسة الأتراك واعتناق المذهب الجعفري (العراقي) على أمل التحالف مع شيعة العراق ضد العثمانيين الحنفية! بسبب الصراع الصفوي العثماني تعمق الخلاف بين المذهب الجعفري والمذهب السني الحنفي واتخذ بعداً سياسياً واجتماعياً عنيفاً لم يعرفه من قبل. بالحقيقة ان المذهب الحنفي ومؤسسة أبي حنيفة أقرب المذاهب السنية الى الجعفرية تاريخاً ومعتقداً. الغريب ان هذه الحالة ما هي إلا تكرار حرفي لتاريخ الخلاف في المسيحية المشرقية قبل الاسلام عندما تعمق الخلاف لدى العراقيين بين أتباع المذهب النسطوري (وهم الغالبية) وأتباع المذهب اليعقوبي (الأقلية)، حيث لعب الصراع الفارسي ـ البيزنطي دوراً حاسماً في تعميق وتأجيج هذا الخلاف!

القطب الأوروبي

بالنسبة لهذا القطب الكامن على الضفة الغربية للمتوسط فانه تمثل عبر التاريخ بأغريق اليونان ثم الرومان ثم الصليبيين حتى الحركة الاستعمارية الأوربية في القرون الأخيرة، وصولاً الى التأثير الأوربي الغربي الحالي. إن هذا الموضوع بالحقيقة لا يتعلق بمنطقة المشرق وحدها بل يشمل كل الضفة الشرقية للبحر المتوسط أي كل العالم العربي من سوريا وحتى المغرب. ويستحق هذا الموضوع أن يعالج تحت عنوان: «تاريخ العلاقات العربية ـ الأوربية». منذ الألف الأول قبل الميلاد بدأ الكنعانيون «فينيقيو لبنان وعموم شواطىء سوريا» بنشر الحضارة المشرقية السامية على ضفتي البحر المتوسط الشرقية والغربية، بل أنهم منحوا قارة أوربا اسمها «غوربة ـ أوربا»، وهي التسمية التي أطلقها الشاميون على إلهة «الغروب» حيث «تغرب» الشمس على ضفاف اوربا، وقد اقتبس الاغريق هذه التسمية في أسطورتهم المعروفة التي تنسب لها تسمية أوربا. بعد ذلك ظهر الاغريق الذين نافسوا الفينيقيين واكتسبوا منهم الأبجدية والحضارة وحلوا محلهم في السيطرة على البحر المتوسط خصوصاً في القرن الثالث

الامارات الصليبية في ساحل الشام وشمال النهرين(جنوب تركيا حاليا)

ق.م مع انتصارات الاسكندر المقدوني. بعد ذلك ظهر الرومان اللذين سيطروا أيضاً على المنطقة بعدما قضوا على القرطاجيين الفينقيين في تونس وشمال افريقيا في القرن الثاني الميلادي. خلال قرون السيطرة الرومانية تمكن السوريون من لعب دور مهم في نقل الحضارة

السامية المشرقية الى الرومان، بل تمكنوا من تكوين سلالات من الأباطرة الرومان المعروفين. وصل التأثير السوري على روما وأوربا الى ذروته بجعل «المسيحية الفلسطينية السورية» دين روما وأوربا الرسمي والغاء جميع الأديان الأوروبية السابقة منذ القرن الرابع الميلادي. عبر هذه المسيحية تمكن السوريون من نقل تراثهم السامي المشرقي بطقوسه وآدابه وموسيقاه وباقي فنونه التي لا زال أثرها واضحاً حتى الآن. لقد وصل السوريون الى منصب بابا الفاتيكان لعدة مرات.

في القرن السابع انبثقت الحضارة العربية الاسلامية وظهور دور الأندلس في جنوب أوربا، عاد المشارقة السوريون ليكرروا من جديد دور أسلافهم الفينقيين بغزو ضفاف البحر المتوسط، لكن هذه المرة باسم الاسلام والحضارة العربية. وعاد من جديد دور أوربا و«الرومان» من خلال الحروب الصليبية والسيطرة على شمال النهرين وضفاف سوريا بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر.

في الفترة العثمانية استمر التأثير الأوروبي على الشام من خلال النفوذ الديني والثقافي والتجاري خصوصاً منذ القرن السادس عشر بعد تمكن الفاتيكان من اقناع جزء من مسيحيي المشرق (أقسام من النساطرة واليعقوبية والمالكية والمارونية) بالتحول الى الكاثوليكية والارتباط بروما. ومنذ نهاية القرن الثامن عشر بدأ النفوذ الأوروبي على الضفة الشرقية للمتوسط يتخذ طابعه العسكري ابتداءً من غزو نابليون لمصر وفلسطين عام (1798). وفي هذه الفترة أيضاً بدأت الصهيونية الأوروبية بالاعداد لتنفيذ مشروعها الاستيطاني في فلسطين من خلال الاستيطان والتجارة. بعد الحرب العالمية الأولى وصل النفوذ الأوروبي الى ذروته بسقوط الدولة العثمانية وتقاسم العراق والشام بين الاستعمارين البريطاني والفرنسي وشروع الصهيونية «الأوروبية» بالإعداد الفعلي لمشروعها بتكوين دولة اسرائيل كممثل مباشر للقطب الأوروبي والغربي.

الخلاصة

من خلال هذه المراجعة السريعة لتاريخ الأقطاب الكبرى : «ايران، مصر، السعودية، تركيا، أوربا» وعلاقتها التاريخية بمنطقة المشرق (ببلدانها الحالية : العراق وسوريا والأردن وفلسطين ولبنان)، تتبين لنا الحقيقة التالية: «إن جميع هذه الأقطاب تمتلك ميراثاً تاريخياً مترسخاً في أعماق «الذاكرة الجمعية» وقائماً على مصالح وضرورات جغرافية وسياسية

وحضارية. مهما اختلفت الأديان واللغات والآيديولوجيات فإن «سليقة التاريخ والذاكرة الجمعية» تظل محكومة بديمومة الموقع الجغرافي وشروط البيئة.

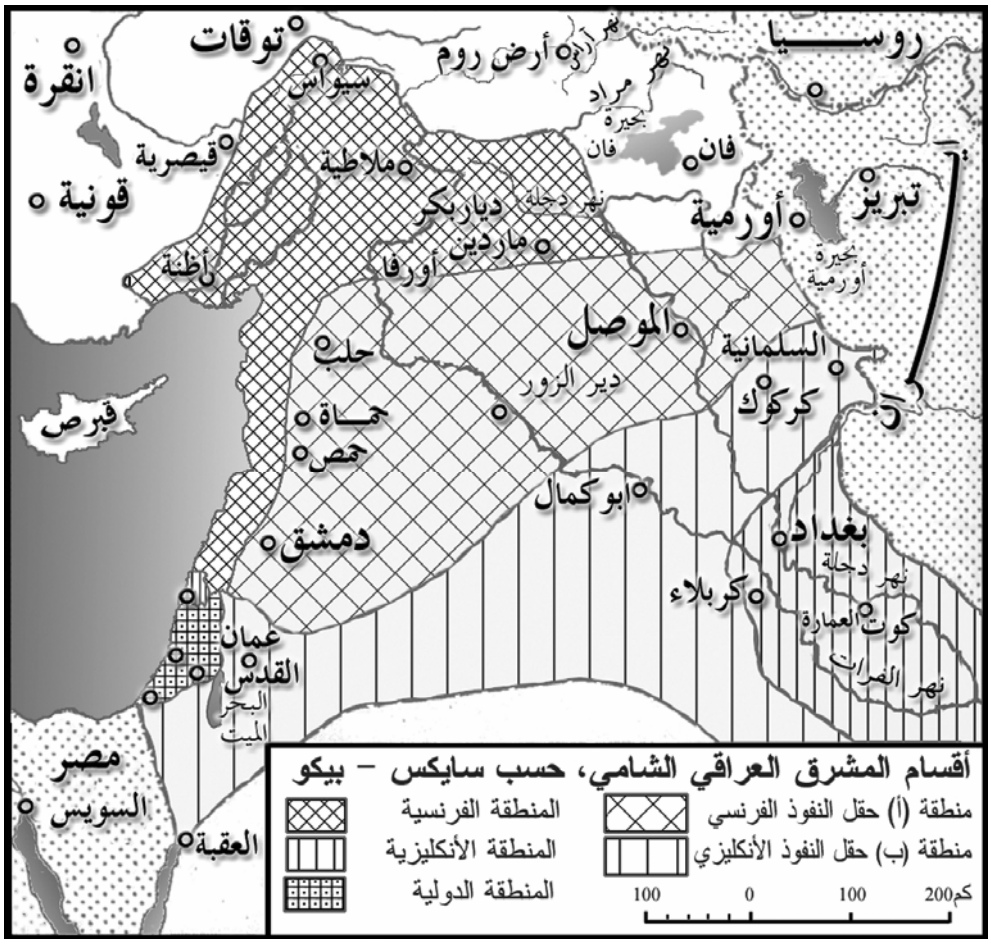

اتفاقية سايكس ـ بيكو لاقتسام المشرق وليس الوطن العربي!

يبدو أن «غرور» أهل المشرق جعلهم يتصورون أنفسهم «كل العرب». فمن السهل لديهم الحديث عن «الوطن العربي» و«الأمة العربية» وو... ولكن الموضوع بالحقيقة يخص منطقتهم. مثلاً اتفاقية (سايكس ــ بيكو) كانت لاقتسام العراق والشام وليس «الوطن العربي» كما نسمع دائماً، والدولة «العربية» التي حاولوا تحقيقها بعد التحرر من العثمانيين كانت بالحقيقة « دولة مشرقية» ولكن تحت سلطة «ملك عربي» بسبب الأصل القرشي الشريف.

ثم إن هذه الخارطة تبين أيضاً أن شمال النهرين (الكردي ـ التركي) حالياً (مدن ماردين وديار بكر والرها «أورفا») كانت جزءاً من سورية وقد منحتها فرنسا إلى تركيا عام (1920ـ1923) بموجب اتفاقيات (سيفر ولوزان).

رغم الاختلاف بين هذه الأقطاب وشدة المنافسة بينها فانها تجتمع في مصلحة مشتركة تتمثل في النواحي التالية :

1 ـ أن هذه الأقطاب لا تسمح لأي قطب منها بفرض نفوذه وحده على كل المشرق. ان نفوذ أو سيطرة قطب معين على باقي المشرق يؤدي تلقائياً الى تهديد سلامة باقي الأقطاب وبالتالي يمهد للسيطرة على عموم الشرق الأوسط والبحر المتوسط.

2 ـ ان جميع هذه الأقطاب تشترك أيضاً في الرغبة بعدم السماح لبروز دولة مشرقية قوية ومنع أي تقارب وتحالف بين بلدان المشرق وخصوصاً التحالف بين البلدين الكبيرين سوريا والعراق. ان مثل هذا التحالف المشرقي يضعف من نفوذ باقي الأقطاب ويهدد ببروز قوة حضارية مشرقية كبرى تتمكن من الحد من طموح جميع الأقطاب الأخرى. ان مثال الحضارات المشرقية السالفة وتاريخ الامبراطوريتين الأموية والعباسية لا زال عميقاً في الذاكرة التاريخية.

3 ـ ان بقاء المنافسة بين بلدي المشرق الكبيرين : العراق وسوريا، وتأثرهما بتجاذبات الأقطاب المحيطة كان السبب الأول والأساسي للخراب والهزائم العسكرية والحروب الأهلية والخارجية وسيطرة النظم الاستبدادية والأقليات المذهبية على عموم المشرق. منذ اغتصاب فلسطين وحتى عملية السلام المجحفة : الانقلابات العسكرية والمجازر والحركات الانفصالية في بلدان المشرق كانت دائماً بدعم من دولة ضد الدولة الأخرى. اندلاع حرب لبنان ودور الخصام العراقي السوري في ديمومتها. حرب العراق وايران التي بدأت بعد انقلاب صدام على الوحدة مع سوريا، ثم دور الخصام السوري العراقي في ديمومة هذه الحرب. حرب الكويت وتأثير الخصام السوري العراقي في تأزيم الحالة حتى اندلاع الحرب. على هذا المنوال يمكن أن نقرأ تاريخ المشرق الحديث منذ الحرب العالمية الأولى وحتى الآن.

4 ـ ان تحالف بلدان المشرق يعد ضرورة حياتية وأمنية ازاء تهديد القطبين العملاقين ايران وتركيا. ويعد هذا التحالف ضرورياً بين العراق وسوريا ازاء الخطر الذي تمثله تركيا في تحكمها بينابيع دجلة والفرات وتهديدها للمصالح الحيوية للبلدين. ان القوة المشرقية لا تبتغي اعلان العداء «القومي» للقطبين الايراني والتركي، بل الهدف الأساسي هو اقامة علاقات متوازنة وتشجيع روابط الأخوة والتقارب في جميع النواحي السياسية والثقافية والاقتصادية.

5 ـ ان التقارب العراقي السوري وتكوين تحالف مشرقي يؤدي الى الحد من تنامي الخطر الاسرائيلي العسكري والاقتصادي وبالتالي القدرة على مواجهتها حضارياً وفرض الأمر الواقع عليها: إما أن تقبل اسرائيل بمنطق التاريخ والجغرافية وتندمج حضارياً وسكانياً وسياسياً بمنطقة المشرق بميراثها اليهودي المسيحي الاسلامي، وإما أن تصر على البقاء حالة شاذة تستمد ميراثها من الدويلات الصليبية والدور التوسعي المعروف للقطب الأوروبي، وهذا الوضع شاذ لن يسمح بديمومته لا التاريخ ولا الجغرافية.

من كل هذا يمكن الجزم بأن طبيعة المشرق الجغرافية والتاريخية والسكانية لا تسمح أبداً بحل وسط ووضع حيادي عادي بين دول المشرق، بل هنالك وضعان متطرفان متناقضان لا وسط بينهما: إما أن تبقى بلدان المشرق في حالة خصام وتنافس وتمزق حسب أهواء الأقطاب المحيطة، وهذا يعني أن تظل تعيش في الخراب والانحطاط والصراعات السياسية والطائفية والسكانية والحروب الأهلية والخارجية في ظل أنظمة ضعيفة ونفوذ صهيوني وغربي متزايد؛ وإما أن تدرك هذه البلدان منطق التاريخ وطبيعة دورها الحضاري، فتقرر التقارب والتحالف وعدم الانقياد لأهواء الأقطاب المحيطة، وهذا يؤدي تلقائياً الى خلق قوة مشرقية قادرة على حماية نفسها ودعم العلاقات الحضارية والانسانية بين عموم بلدان الشرق الأوسط والبحر المتوسط والعالم العربي. ان الحلف الحضاري المشرقي سوف يكون الأساس لحلف حضاري بين جميع بلدان العالم العربي لأن التاريخ برهن ويبرهن يومياً بأنه من دون تقارب بلدان الشرق لا يمكن أبداً الحديث عن أي تقارب أو توحد عربي. ان دور المشرق يشبه الى حد بعيد دور «أوربا الغربية» في توحيد القارة الأوربية.

ملاحق معلوماتية

عن تاريخ بلدان المشرق العراقي ـ الشامي
وعن وحدة الهلال الخصيب والحزب السوري القومي

أوربا .. أسم فينيقي سامي بمعنى (الغرب والغروب)

بالنسبة لتأثير الفينيقيين على الحضارة وبالذات على أوربا التي منحوها حتى اسمها (اوربا ـ غوربا) أي الغروب حيث تغرب الشمس على سواحل أوربا كما يراها السوريون القاطنون على السواحل الشرقية. والطريف أن اسم (اوربا) هو نفسه اسم (عرب) لأن حرف العين والغين يتبادلان في السامية مثل سين وشين. والعرب هم القاطنون في (غرب) الفرات وقد شاع الاسم لدى أهل النهرين لأن الصحراء في الغرب، والبدو يأتون من الغرب (بادية الشام). ولا زال العراقيون يطلقون على سكان أعالي الفرات (الغربية) عكس (الشرجية ــ الشرقية) وهم أهل الجنوب:

❖ أسطورة قدموس(*) فينيقية يونانية يمثّل فيها زفْسُ، ربُّ أرباب الأولمب وإلهُ المطر والرّيح والصاعقة، وزوجته هيرا الإلهةُ الحاميةُ للزواج دوراً عظيماً. ثم تبناها الرومانُ فجعلوا جوبيتر وزوّجه جونون يحلاّن فيها محلَّ زفسَ وهيرا. وقد ذكر هذه الأسطورة كثيرون من المؤرخين منهم هيرودوتُ وسيكَ وبوسانيا ونقولا الدمشقي، ونظَمها كثيرون من الشعراء شعْراً، وأشار إليها هوميروسُ وقصَّها الشاعرُ اللاتينيُّ أوفيدُ بين الأساطير التي نظمها في كتابه «التحوّل».

أفريقيا .. أسم فينيقي سامي بمعنى (الفرقة أو المقاطعة)

❖ **كلمة افريقيا :**

«اسم أفريقيا لا بد وأن يثير الانتباه. حيث أنه كان يطلق في البداية على قرطاجنة ومناطق نفوذها قبل أن يشمل القارة بأسرها. ففي زمن الحروب البونية كان المؤرخون اللاتين يطلقون اسم افريقي على المواطنين القرطاجيين. وكان السكان الثائرون يسمون باسم قبائلهم منهم من المور والبربر وليس الأفارقة. فالإفريقي هو المواطن القرطاجي. وأفريقيا الاسم الرسمي للمقاطعة المحيطة بقرطاجة في عهد الرومان وهي مستقلة ادارياً عن نوميديا وموريتانيا. وكان

---

* قدموس : لفظة يونانية معناها القاهر المظفّر . وأوربا لفظة سامية أصلها عَرُوباً ومعناها الغرب . ويقول هيرودوت إنُّ أوربا الفينيقية هي التي أعطت القارة الأوروبية اسمها ، لأنَّ هذه القارة لم يكن لها اسم في ذلك الزمان البعيد .

من كتاب «أساطير شرقية ـ كرم البستاني ـ ص45» .

العرب يطلقون على تونس التي نعرفها اليوم اسم أفريقيا. لهذا يربط المستشرقون كلمة أفريقيا بأصل سامي أصبح بالعربية «الفرق». ويرى سلان أن الكلمة الفينيقية التي تحولت باللاتينية لافريقيا تعني القطعة أو الجزء، وهي المقاطعة التي تنفصل عن الوطن الأم. أما غيزل فلا يعير انتباهاً لهذا الأمر. على أن كلمة أفريقيا ليست لاتينية وانما أخذت من اللغة البونية (الفينيقية).

ويبدو لي أن بقاء الاسم مع مرور الزمن يعني توفر عناصر معينة لاستمراره».

من كتاب «ماضي شمال أفريقيا – أ. ف. غوتييه – ص 89».

❖ ❖ ❖

بريديصان، عالم سرياني (عراقي سوري) يستحق التذكر

رغم مرور ستة قرون بعد سقوط بابل على يد الفرس (539 ق. م) ونهاية آخر دولة عراقية حتى الفتح الاسلامي، إلا أن العراق استمر بتقديم العلماء الكبار الذين أدخلوا الميراث الديني العراقي في الديانة المسيحية. عكس السائد لدى مؤرخينا المعاصرين من أن الديانة الفارسية (المجوسية) كانت المؤثر الأول في أديان المنطقة، نكتشف من خلال هذا النص أن الديانة العراقية والسورية كانت هي المؤثر الأول. بالإضافة الى تأثير الأفكار الروحية الفلسفية (الغنوصية ـ العرفانية) والهرمزية القادمة من الاسكندرية في مصر. علماً بأن هذا العالم قد ولد في (الرها) شمال النهرين العراقي السوري، والتي أصبحت في القرن الحالي تابعة لتركيا:

❖ في فجر الثقافة السريانية ظهر كوكب مشعّ وضّاء، كان «آخر الغنوصيين» مزج التصورات والآراء الفلسفية لبلاد ما بين النهرين (القديمة) والنصرانية والعقائد الغنوصية (العرفانية) القادمة من الاسكندرية.

ولد بريديصان في الرها سنة 154 م ضمن أسرة علم وأدب. ونشأ في قصر ملكها (معنو) حيث كان أليف طفولة أبجر الثامن أمير الرها وملكها المستقبلي وحليف صباه وشبابه وعضيده في المشورة والرأي. أما اسمه فهو مستمد من اسم النهر (ديصان) الذي كان يمر بالرها. وتذكر المصادر المتوفرة عنه أنّ بريديصان هو الذي استطاع أن يقنع أبجر وحاشيته باعتناق النصرانية إذ سبق لبريديصان (مستشار هذا الملك) ان دان بالنصرانية واهتدى اليها في مطلع شبابه.

لقد استطاع برديصان أن يلبي ميوله العلمية والفلسفية بفضل معرفته العميقة للغتين السريانية واليونانية على قدم المساواة حيث كان متبحراً في العلم السرياني والثقافة الاغريقية.

أصبح برديصان مسيحياً وداعية الى المسيحية وقد استهواه مذهب فالانتين (المصري)، أما معارفه الفلكية فقد استمدها من قدماء المنجمين ومن العقائد التنجيمية المختلفة. وقامت دعوته المسيحية على مجموعة من الآراء والمعتقدات الخاصة بالقضاء والقدر تكونت تحت تأثير أفكار الغنوصيين والأفكار التي تقول إن النفس لا تولد ولا تموت كما كان قريباً من أطروحات مرقيون وماني البابلي وكان ثنوي العقيدة بعامة.

وضع برديصان كتباً شتى لم يبق منها غير كتاب «شرائع البلدان» الذي أملاه برديصان على تلميذه فيليبس (كما تلقى أفلاطون كلمات معلمه سقراط الأخيرة). أو أنه يمثل صيغة سريانية فلسفية «للمحاورة عن النفس» وعن القضاء والقدر منسوبة الى برديصان أيضاً. والغريب أن هذا الكتاب الذي يدور البحث عنه أساساً عن النفس والقضاء والقدر عُرف عند السريان باسم «كتاب شرائع البلدان»، وذلك نقلاً عن عنوان الفصل المعقود، في هذا الكتاب في ايراد شرائع البلدان المختلفة حجة على حرية الانسان المطلقة (وهو على صورة حوار بين برديصان وتلميذه المدعو عويذا). وقد ترجم نصه السرياني الى اليونانية واستخدم في كتاب "Praeparatio" ليوسيقوس القيصري وفي كتاب "Recognitiones" لكليمنت ـ المزيف. وقد أثرت الآراء الفلسفية لبرديصان وكذلك نظرياته وتعاليمه التنجيمية والفلكية سواء على معاصريه أو على علماء القرون التالية. وظهر هذا التأثير العميق في الأدبين السرياني واليوناني في آن معاً. ومع أن كثيراً من الآراء والاستنتاجات التي كان يرددها برديصان مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعقائد الغنوصية وبالتقاليد التنجيمية «البابلية» المحلية، ففي المحاورة المعقودة بين برديصان وتلميذه المدعو عويذا يصب الفيلسوف آراءه الفلكية ـ التنجيمية قائلاً: «إننا نستطيع أن نريك كيف أن المصائر والأقدار لا تفعل ذات الفعل لدى الناس جميعاً وأننا نملك حرية شخصية من شأنها أن تمنحنا امكانية «عدم الخضوع والاستكانة» لتأثير الطبيعة المباشر، وكيلا نكون تحت تأثير «السلطة الموجهة» (القضاء والقدر). أما عويذا فيردّ قائلاً، أنه لو تمت البرهنة على ذلك فإنه سيقتنع بصحة رأي الحكيم. عندئذ ينصحه برديصان: «اقرأ كتاب كهنة بابل الذي كُتب فيه، أن اتحاد النجوم واقترابها من بعضها يؤثر على أبراج الناس، واقرأ كتاب المصريين الذي يتحدث عن المصادفات والحظوظ التي تبرز للناس». فأجاب عويذا معلمه:

«لقد قرأت كتباً بالفلك والتنجيم ولكنني لا أعرف أيها كانت بابلية وأيها كانت مصرية». فيوضح له برديصان : «إنها علوم كلا البلدين».

وهكذا، فقد بنى برديصان علومه الطبيعية والفلكية على المعتقدات وعلى العلوم الفلكية، التي تم بلوغها في بلاد ما بين النهرين (في بابل) وفي مصر (في الاسكندرية). وكان الفرق بين هاتين المدرستين ضئيلاً حتى أنه يمكن القول أنه حصل تأثير علمي متبادل بينهما في القرن الثالث للميلاد الى درجة الامتزاج الكامل (تقريباً)، فتوحدتا في نظرية عامة كانت تتألف من منظومة علمية فلكية ضمن إطار شكلي في صورة معتقدات تنجيمية معينة تراكمت بعض مقولاتها بناءً على مراقبات طويلة (امتدت) الى قرون كثيرة كان يقوم بها «كهنة» بابل و«سحرتها» و «حكماؤها» لحركة النجوم والأفلاك. وبناءً على تلك الملاحظات الطويلة استطاع منجموا بابل أن يضعوا لوحة فلكية تقويمية دقيقة (الى حد كبير) عن التغيّرات الفلكية الطبيعية المتوقعة على مدار السنة بأكملها. وقد دوّنوا (بشكل خطي) جميع التغييرات التي تحصل في حركة النجوم والكواكب، ورسموا بنجاح عظيم أماكنها (منازلها) ودرجاتها ومداراتها وزواياها وسمتها أيضاً. على هذا، فإن العلوم الفلكية التي كان برديصان وأتباعه ينهلون منها بلغت شأناً كبيراً ومستويات رفيعة في تلك الأزمنة.

من كتاب (ثقافة السريان في القرون الوسطى ـ نينا بيغوليفسكايا ـ ص 173ـ180).

❖ ❖ ❖

التأثير السوري في مصر

طيلة التاريخ ظلت مصر متعلقة بسوريا، ويمكن عد السيطرة المصرية على سوريا بعشرات القرون منذ الفراعنة والطولونيين والفاطميين والمماليك حتى الوحدة المصرية السورية عام 1958. ولكن رغم ذلك فإن السوريين هم الذين كانوا يضخون مصر بالهجرات السكانية والتأثيرات الحضارية وكان أبرزها انتقال المسيحية اليعقوبية من سوريا الى مصر باسم (الكنيسة القبطية) وكذلك انتشار اللغة العربية بلهجتها السورية من خلال الجيوش السورية، هنا لمحة عن التأثير السوري في مصر خلال العصور السابقة لانتشار المسيحية:

❖ **التأثير السوري في مصر**

«وكما كان تأثير الحضارة المصرية على سورية بارزاً فان هنالك دلائل تلفت النظر بصورة أوسع عن التأثير السوري في مصر. ويتضح التأثير السوري في أقدس قصة فرعونية مصرية وهي قصة آلام اوزيريس الذي قطع جسمه إرباً ووضع تحت شجرة الأثل في جبيل. ويظن البعض أن الجثة المشوهة وضعت في مصر. وقد تكون عبادة أوزيريس برمتها مأخوذة من الساحل السوري في تاريخ قديم جداً. وقد أدخل الإله حورون (Hawron) وهو الإله الرئيسي في يبنه الى معابد مصر في أيام امنحوتب الثاني (حوالي 1450 ـ 1430) ويظهر في اسم حورمحب مؤسس السلالة التاسعة عشرة (1350 ق. م) ويمكن الاستدلال على عبادة عشتاروت في منتصف القرن الثالث عشر من ان اسم أحد أبناء رعمسيس الثاني كان ميري استروت (Astrot_Meri) أي محبوب عشتاروت.

وكان الاقبال على الفتيات السوريات في مصر أكبر من الإقبال على الفتيات المصريات في سورية. وقد دخل منهن عدد كبير الى مصر بشكل رهائن وإماء أو زوجات عندما كانت الامبراطورية في ذروتها حتى أن تغييراً ملحوظاً حصل في سحنة أفراد الطبقة العليا. وكان بين حريم الملوك والأرستوقراطيين أميرات ميتانيات وحثيات وفينيقيات في كثير من الأحيان. وهنالك تباين واضح بين ملامح تحوتمس الرابع الدقيقة وأنفه الأقنى وبين النموذج الذي تمثله سحنة تحوتمس الأول بفكه الكثيف وأنفه القصير. وأتت مع الزوجات الأجنبيات أفكار أجنبية بين دينية وغير دينية. وقطع أخشاب الفصيلة الصنوبرية التي وجدت في قبور ما قبل عهد السلالات والدعائم المستخدمة في بناء قبور السلالة الأولى تدل على الاستيراد من سورية منذ ذلك العهد البعيد. وتشهد الآثار المتأخرة في مصر عن كثرة المحاصيل السورية في عهد الملكية الحديثة وغناها. وكان الصناع السوريون ينتجون أسلحة ثمينة مزخرفة وثياباً مزركشة وأواني أنيقة وأثاثاً ومركبات مرصعة بالذهب والفضة. واستعار المزينون السوريون من مصر نبات اللوتس (عرائس النيل) والبابيروس (البردى) وشوكة اليهود (acanthus) ولكن السوريين هم الذين جعلوا من الآراولة (الكرسنتيم) والسوسن والختمي نباتات زخرفية. وهم الذين كانوا أيضاً أول من فكر بوضع الزهور الاصطناعية في أوان معدنية. ولأجل نقل صمغ الصنوبر والصمغ العادي والعسل والزيت استخدم السوريون الجرار المستدقة في أسفلها وقد اكتشفت بقاياها في مصر وجبيل. ووجدت أوان مزخرفة بدهان ذي بريق معدني حسب أسلوب سورية الشمالي كمستوردات في قبور الفراعنة الأولين في أبيدوس. ووصل فن الدهان

ذي البريق المعدني الى كريت المينوسية من سورية الشمالية. وسرعان ما نشأ عند المصريين تذوق لمثل هذه المنتجات الفنية التي أتت بها حوادث الحرب أو عمليات التجارة والسياحة وأخذوا يقلدونها. وفي حركة البعث في فترة سايتي في القرن السابع نقل المصريون عناصر متزايدة من الفن الفينيقي الذي فقد أصالته في القرن التالي وكسفه الفن اليوناني.

ظهر العود لأول مرة في مصر بعد فتوحات تحوتمس الثالث. والأهداب الثقيلة التي عليه هي سورية في شكلها. وتظهر القيثارة لأول مرة مع البدو الساميين في عهد السلالة الثانية عشرة. وكانت سورية غالباً مصدر الرصاص الذي أصبح شائعاً في السلالة الثامنة عشرة.

ولم تكن القرون الأربعة للحكم المصري كافية لجعل سورية مصرية كما أن أربعة قرون من الحكم التركي لم تكن كافية لجعل سورية تركية. ولم يتأثر السكان الوطنيون إلا قليلاً بالفكر واللغة المصريين. وبقيت بضع كلمات مصرية في العربية الحديثة ولكن معظمها انتقلت فيما بعد بطريق اليونانية أو القبطية. وفي العصور الفينيقية كما في العصر الحديث هاجر كثير من السوريين الى وادي النيل ولكن قليلين جداً من المصريين هاجروا الى سورية. وكانت معظم العلاقات التجارية بيد الفينقيين. ويبدو أن اقليم مصر كان لا يسمح لسكانها بالعيش في بلاد أخرى خاصة حيث الأمطار وموجات البرد في الشتاء تتطلب مقدرة على المقاومة. وقد قال المثل الشائع أن من اعتاد على شرب ماء النيل يحب أن يشرب منه دائماً».

من كتاب «تاريخ سوريا ـ ج 1 ـ فيليب حتي ـ ص 146 ـ 148».

❖ ❖ ❖

تعريب الأندلس من خلال السوريين

إن ديمومة التاريخ وتكرار الأحداث مرتبطة بديمومة الموقع الجغرافي وظروف البيئة. نلاحظ مثلاً أن موقع سوريا الطبيعية على البحر المتوسط جعل من سكانها منذ الأزل يتجهون بأنظارهم الى سواحل البحر المتوسط ، سواء عن طريق التجارة الفردية أو الفتوحات التجارية السياسية. لقد عمر السوريون (الفينيقيون) جميع سواحل البحر المتوسط ونقلوا آثارهم وحضارتهم الى اليونان وايطاليا واسبانيا وشمال افريقيا ومصر. وقد لاحظ المؤرخون أن الفتوحات الأموية لشمال افريقيا واسبانيا هي شبه تكرار حرفي لفتوحات الفينيقيين السابقة وبنائهم لقرطاجة والكثير من الساحل الافريقي والاسباني مثل (برشلونة ــ برقة لونة ــ وقادس) في اسبانيا.

هنا لمحة عن توطن الشاميين في الأندلس التي فتحتها الجيوش المتكونة من البربر والسوريين كما حدث أيام القرطاجيين:

❖ تفريق الشاميين في الأندلس

«رأى أبو الخطار أن أهل الشام يسكنون كلهم في قرطبة وما جاورها وأنهم كثروا «عنده ولم تحملهم قرطبة» (ابن خلدون 4 : 119). فاذا نحن صرفنا النظر عن ان ازدحام هؤلاء في منطقة واحدة يثقل الحياة الاقتصادية في تلك المنطقة، فان وجودهم على مقربة من دار الحكم ينطوي على تهديد مباشر لأبي الخطار عاجلاً أو آجلاً. من أجل ذلك فرّقهم أبو الخطار في الأندلس، قيل بنصيحة أرطباش بن غيطشة، على الوجه التالي:

أ) أنزل أهل دمشق في البيرة (مقاطعة غرناطة) ـ لشبه البيرة بدمشق ـ وسماها «دمشق».

ب) أنزل أهل حمص في إشبيلية ـ لشبه مقاطعة اشبيلية بحمص ـ وسمّاها «حمص».

جـ) أنزل أهل قنّسرين في مقاطعة جيّان وسماها «قنّسرين».

د) أنزل أهل الأردن في مقاطعة ريّة (في أُرْشُذونة ومالِقة) وسماها «الأردن».

هـ) أنزل أهل فلسطين في شذونة (وهي مقاطعة شريش) وسماها «فلسطين».

و) أنزل أهل مصر، وكانوا كثاراً، في مكانين: في مقاطعة باجة من جنوب غربي الأندلس، وفي مقاطعة تُدْمير من جنوبي شرقي الأندلس.

وأقطع أبو الخطار أهل الشام في الأماكن التي أنزلهم فيها أراضي مما كان يملك عجم الأندلس (الاسبان الذين لم يعتنقوا الاسلام ولا تعلموا العربية) ثم أعطاهم من أنعام هؤلاء العجم ما يستطيعون أن يعيشوا به».

من كتاب «العرب والاسلام في الحوض الغربي ـ عمر فروح ـ ص 152 ـ 153».

❖ ❖ ❖

البيئة وتأثيرها على شخصية المجتمع وعقليته

❖ أثر البيئة في مصر وأرض النهرين

إننا إذ نتوجه من مصر القديمة نحو العراق القديم، نغادر حضارة ما زالت آثارها الضخمة باقية، «أهرام عظيمة من الحجر تعلن سطوة الانسان في قهره القوى المادية»، ونتوجه نحو حضارة اندثرت آثارها وحالت مدنها الى ركام. فالتلال الشهباء الصغيرة التي تمثل ماضي العراق تكاد لا تذكر المرء بأي من عظمته السالفة.

ليس في ذلك من ضير، لأنه يتفق والذهنيتين الأساسيتين اللتين بنيت عليهما هاتان الحضارتان. فلو عاد المصري القديم الى الحياة اليوم، لسرّ لمرأى أهرامه وهي باقية بعد لأنه كان يعطي الانسان ومنجزاته الملموسة معنى جوهرياً يفوق ما ترضى بإعطائه معظم الحضارات. ولو عاد العراقي القديم الى الحياة، لما اضطرب كثيراً لمرأى آثاره وهي حطام، لأنه كان دائماً يعرف معرفة عميقة بأن «الإنسان أيامه معدودة ومهما صنع فما هو إلا ريح تهب». فمركز الوجود ومغزاه لديه بعيدان عن الإنسان ومنجزاته، بعيدان عن الأشياء الملموسة في قوى غير ملموسة تحكم الكون.

أما كيف توصلت الحضارتان المصرية والعراقية الى هاتين الذهنيتين المتباينتين ــ الواحدة تثق في قوة الانسان ومعناه الأبعد، والأخرى لا تثق ـ فسؤال عسير. فـ «ذهنية» حضارة ما هي نتائج حياتية معقدة متداخلة تتحدى التحليل الدقيق. ولذا فاننا سنشير الى عامل واحد يبدو أنه لعب في ذلك دوراً مهماً، هو عامل البيئة. فقد نشأت الحضارة المصرية في بلد مرصوص حيث تقع القرية لصق القرية فتطمئن، والمنطقة كلها محاطة ومعزولة بحواجز جبلية تحميها. في سماء هذا العالم المحمي تمر كل يوم شمس لا تخلله أبداً، وتنفخ الحياة فيه بعد ظلام الليل، وفيه يرتفع النيل الأمين كل سنة ليخصب التربة المصرية ويحييها من جديد. فكأنما الطبيعة هنا تكبح نفسها عن قصد، كأنها وضعت هذا الوادي في حرز حريز لكي يمتّع الانسان نفسه دونما عائق.

أما حضارة أرض النهرين فقد نمت في بيئة مختلفة كل الاختلاف. ولئن نجد فيها الإيقاع الكوني نفسه، بالطبع ـ تعاقب الفصول، سير الشمس والقمر والنجوم ـ فإننا نجد فيها أيضاً عنصراً من القسر والعنف لم تعرفه مصر. فدجلة والفرات يختلفان عن النيل، اذ قد يفيضان على غير انتظار أو انتظام، فيحطمان سدود الانسان ويغرقان مزارعه. وهناك رياح لاهبة تخنق المرء بغبارها، وأمطار عاتية تحول الصلب من الأرض الى بحر من الطين وتسلب الانسان حرية الحركة وتعوق كل سفر. فهنا، في العراق لا تضبط الطبيعة نفسها. إنها ببطشها تتحكم بمشيئة الانسان وتدفعه الى الشعور بتفاهته ازاءها».

من كتاب «ما قبل الفلسفة ـ هـ . فرانكفورت ـ ص 145 ـ 147».

❖ ❖ ❖

عن النقاء العروبي لأسلافنا

نورد هنا موضوعاً شيقاً وطريفاً عن الجواري والعبيد في عصور الحضارة الاسلامية. والغاية من هذا الموضوع هي الدعوة للتفكير والتساؤل: أليس من المنطقي والمعقول أن يكون هذا العدد الهائل من الرقيق وخلال عدة قرون قد ترك أثره في التكوين العرقي لشعوبنا، بحيث يمكننا القول بكل يقين أنه ليس هناك أحد منا لم يرث شيئاً من هؤلاء الأسلاف من العبيد والجواري، سواء عن طريق الآباء أو الأمهات؟

❖ الرقيق

«كان مصدر الرقيق في بداية الفتوحات العربية من أسرى الأعداء ممن لن يعتنقوا الاسلام أو لم يدخلوا في ذمة المسلمين. إذ يقسم الأسرى والسبايا بأن يكون للدولة الخمس يُصرف في الصالح العام، وتوزع أربعة أخماس على المقاتلين، فيُعطى الفارس سهمين والراجل سهماً واحداً. ولم ينفرد العرب بهذه المعاملة للأسرى، فقد كان ذلك مرعياً عند الأمم الأخرى. فمن كان يقع من المحاربين العرب في أيدي الروم مثلاً، لكثرة الحروب معهم كان نصيبه الاسترقاق. إلا أن الدولة العربية كانت تُعنى بافتدائهم إما بالمال وإما بإطلاق ما يقابلهم من أسرى الأعداء.

ونظراً لتوسع الفتوحات العربية كثر الرقيق المجلوب من البلاد المفتوحة وشاع استخدامهم. إذ كان الأسرى والسبايا يوزعون على ذوي العلاقة من المحاربين جنداً وقواداً، وأكثر هؤلاء يبيعون ما يزيد عن حاجتهم منهم. فاتسعت معاملات شراء أنواع الرقيق واستجلابها فصارت تجارة واسعة، كان لها في بغداد سوق خاصة. وعندما انشئت سامراء أقيمت فيها سوق كانت تقع في الشارع الأعظم وهي مربعة الشكل بها طرق متشعبة وعلى جانبيها الغرف والحوانيت للرقيق أيضاً.

ويعتبر الرقيق ملكاً لصاحبه، له أن يبيعه أو يهبه أو يعتقه. ولصاحب الأمة أن يستمتع بها ويستولدها باعتبارها ملك يمينه سواء أكان متزوجاً أو غير متزوج، وإذا ما ولدت منه كان ابنها حراً، وسميت هي «أم ولد»، ورغم رقّها فلا يجوز له أن يبيعها أو يهبها وتصبح حرة عند وفاته.

ومع أن الاسلام لم يُلغ الرقّ فقد أمر بحسن معاملة الرقيق وعدم تكليفهم بما لا يطيقون من الأعمال، وشجع على عتقهم أي تحريرهم من عبودية الرق، بل إنه اعتبر ذلك من أجل

الأعمال. فقد جاء في الآيات الكريمة ﴿فلا اقتحم العقبة، وما أدراك ما العقبة، فكُّ رقبة﴾. وقد أكدت آيات أخرى من القرآن الكريم على ذلك. فقد ورد في الآية الكريمة ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجَنْب والصاحب بالجَنْب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾ وشجعت الآية الكريمة ﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾ على الزواج من ملك اليمين إذا كانوا صالحين.

وللعبد أن يشتري حريته من مالكه، فقد جاء في الآية الكريمة ﴿... والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي أتاكم ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء إن أرَدْنَ تحصناً..﴾ . أي أن المملوك إذا كان أميناً وكان ذا كسب وأراد أن يكاتب سيده على مبلغ معين لقاء عتقه فيكاتبه، سواء أدى المبلغ عاجلاً أو آجلاً.

وكان عتق الرقيق يتم على نطاق واسع في بعض المناسبات. وقد يشتري بعض الناس الرقيق لغرض عتقهم. فقد أعتق المتوكل على الله عند إعذار ابنه المعتز ألف عبد وأمر لكل منهم بمئة درهم وثلاثة أثواب.

وقد سمي الأرقاء البيض مماليك والسود عبيداً. وكان من الطبيعي أن تختلف قيمة المملوك أو العبد ذكراً أو أنثى بما يحسن من الأعمال، وحملة السلاح منهم أعلى منزلة من غيرهم، وقد صار منهم قواد وأمراء بارزون في الجيش العربي، وكان لكثير منهم شأن كبير في سير الأحداث ومصائر الخلفاء.

وكان الصقالبة والترك المصدر الذي لا ينضب معينه من المماليك. وما كان يجلب الى حاضرة الخلافة، بغداد أو سامراء من الصقالبة يأتي من بلاد الفرنج عن طريق الأندلس.

من كتاب (معالم الحضارة العربية ـ احمد عبدالباقي ـ ص 50ـ54)

وجود العبيد والجواري في حضارة العراق القديم

إن مجتمع مدينة بابل يذكر كثيراً بمجتمع مدينة بغداد في العصر العباسي، من حيث وجود فئات أجنبية عديدة بالاضافة الى السكان الأصليين:

❖ «كان مركز بابل التجاري يعطي زواره صورة ملونة لشعوب مختلفة، وفي المقدمة السكان الأصليون الذين عاشوا في بابل منذ أجيال عديدة، منذ أن وضع فيها أجدادهم عصا

الترحال بالاضافة الى الحجاج والتجار والضيوف الذين كانوا يقدمون من مختلف البلدان للاقامة في هذه المدينة الجميلة سواء لفترات طويلة أم قصيرة. ولقد جلبت الحملات العسكرية للملوك البابليين ولا سيما حملات نبوخذ نصر، الألوف من الأسرى الى بابل والذين كانوا يضطرون للعمل هناك كعبيد. إن المتجول في الشوارع والأسواق يمكنه أن يتعرف ببساطة ليس على ممثلي مختلف أنواع الشعوب حسب، بل كان بإمكانه أن يأخذ انطباعاً عن مختلف أنواع الطبقات الاجتماعية أيضاً. وكانت الطبقة الدنيا في المجتمع البابلي تتكون من العبيد. كانوا يشتغلون في مختلف أنواع الأعمال، فقد كانوا يعملون كعمال مساعدين في بناء القصور الملكية أو الزراعة أو كأجراء عند التجار وأصحاب الحرف أو كخدم في البيوت. ويلاحظ أن العبيد كانوا يعاملون كشيء زهيد منذ عهد سومر أو كأية قطعة يمكن التصرف بها كيفما يشاء دون أن يحميها أي قانون، فمثال نرى ذلك في مجموعة قوانين حمورابي التي تؤكد بأن عقوبة العبد تختلف عن عقوبة الحر وقد نص كما يلي: (وإذا فقأ أحدهم عين رجل حر، فقئت عينه. إذا فقأ أحدهم عين رجل عبد رجل آخر أو كسر عظمه، ينبغي أن يدفع لصاحب العبد نصف ثمن الأجير). وكان هذا المبلغ يدفع بالطبع الى صاحب العبد، إذ أن تشويه العبد كان يعتبر تقليلاً لثمنه. وكان العبد يعتبر بالنسبة لسيده أداة عمل ثمينة، ولذلك كان الاعتناء به من مصلحته الشخصية. وكان العبد الذي يعمل خادماً في أحد البيوت يعتبر على حد ما أحد أفراد العائلة. وغالباً ما كان يتخذ رب البيت عبده كعشيقة أو امرأة إضافية والتي كانت تستطيع نتيجة انجاب الأطفال ولا سيما الذكور أن تصل الى مركز مرموق في العائلة. ولم يكن عدد المشتغلين من العبيد في بيت مواطن متوسط كثيراً. وكانت معظم الأعمال يقوم بها أفراد العائلة التي كانت تملك عادة ما يتراوح بين واحد الى ثلاثة عبيد. وفي عهد نبوخذ نصر بنى الحرفيون وأصحاب المهن والمصالح ورشات انتاج كبيرة شغلوا فيها أعداداً كبيرة من العبيد».

من كتاب «رحلة الى بابل ـ ايفلين كلينكل ـ ص 46ـ47».

❖ ❖ ❖

عن وحدة بلدان المشرق

إن الدعوة الى وحدة بلدان المشرق (الهلال الخصيب) قديمة وتعود الى سنوات العشرينات بعد التحرر من الاحتلال العثماني وانكشاف مؤامرات الانكليز والفرنسيين (سايكس بيكو) التي قسمت المشرق ووعد (بلفور) بمنح فلسطين لليهود. هنا بعض الآراء بهذا الخصوص :

❖ **مشهد وحدة الهلال الخصيب**

يرتكز هذا المشهد على فكرة وجود بنية تاريخية ــ اجتماعية واحدة في المنطقة المدروسة في هذا الكتاب، وأنه من الطبيعي تالياً أن تتكرس هذه البنية في شكل قانوني مناسب، هو دولة واحدة تضم أراضي المنطقة بأسرها. لقد دافع اللبناني أنطون سعادة عن الفكرة (ملحقاً قبرص والكويت بهذه البنية)، كما تبنتها أحياناً الأسرة الهاشمية. ويمكن الاعتقاد أن لا حياة لهكذا مشروع إلا من خلال وحدة الكيانين الأساسيين في المنطقة أي سوريا والعراق. وهذا ما حصل شكلياً ولفترة وجيزة عام 1979.

من المعقول التفكير بهذا المشهد خصوصاً إذا بدا أن المنطقة المعنية ازدادت هشاشة وضعفاً بسبب تضافر الضغوط الاقليمية المباشرة عليها المتأتية مثلاً من اسرائيل وايران وتركيا. فالمنطقة ككل تتميز بوجود أربعة كيانات (ومشروع كيان فلسطين) بمقابل اسرائيل نووية وتركيا موحدة وايران قادرة (من دون ذكر أطراف عربية كمصر أو السعودية). من هنا فالضغوط التوسعية على هذه المنطقة كانت دائماً كبيرة، باستثناء مراحل قصيرة من الزمن، كما في المرحلة الأموية أو في مطلع المرحلة العباسية. ولكن رد الفعل الطبيعي لحكام المنطقة لم يكن توحيدياً بقدر ما سعى الى موازنة ضغط خارجي بآخر. فوازن العراقيون لفترة الفرس بالترك، والسوريون محمد علي بالعثمانيين الى ما هنالك. هل هناك ما يشير الى تحول تاريخي في هذا المسلك؟ في الواقع فإنه من الصعب رؤية مؤشرات على هكذا تحول. إذ أنه خارج الحزب القومي السوري (وهو نفسه يبدو أحياناً وقد تخلى عن العراق حيث لم تلق طروحاته أي مدى يذكر)، ليس هناك من قوى تدعو فعلاً الى وحدة «الهلال الخصيب»، ولا يبدو أن هناك أنظمة تعمل فعلاً في هذا الاتجاه. ولكن المشهد يبقى قائماً ويصبح على الأرجح معقولاً أن بدا أن الثلاثي الاسرائيلي ـ الايراني ــ التركي يزيد من «أزمة الهلال» وأن العرب غير مهتمين بمواجهة حقيقية له. غير أن ضعف المشاركة العراقية النسبي في الحرب مع اسرائيل، والموقف الرسمي السوري من العراق خلال حربه مع ايران، وأمور أخرى، تشير الى أننا بعيدون عن أي تيار توحيدي «هلالي» حقيقي.

من كتاب «المجتمع والدولة في المشرق العربي ـ غسان سلامة ـ ص 258ـ259».

❖ ❖ ❖

❖ الهلال الخصيب : نظام اقليمي جديد

طرح الرعيل القومي العربي الأول المتمثل بالأمير فيصل بن الحسين والزعامات السورية الوطنية وجماعة العهد من الضباط العرب في الجيش العثماني، فكرة الهلال الخصيب لوحدة المشرق العربي، ولكن اتفاقيات سايكس ـ بيكو حالت دون ذلك. إلا أن ظروف الحرب العالمية الثانية وتعقد القضية الفلسطينية دفعت مشروع الهلال الخصيب للواجهة مرة أخرى عندما طرح نوري السعيد في عام 1942 فكرة الهلال الخصيب في مذكرة اشتهرت باسم الكتاب الأزرق، بعث بها الى وزيرالدولة البريطاني كيسي، كتصور لمستقبل المنطقة بما يوفر حلاً للقضية الفلسطينية، تضمنت المبادىء الأساسية التالية :

1 ـ أن يعاد توحيد سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن في دولة واحدة.

2 ـ أن يبت سكان هذه الدولة أنفسهم في نوع الحكومة التي تروق لهم سواء أكانت ملكية أم جمهورية، وسواء أكانت وحدة أم اتحاداً فيدرالياً.

3 ـ أن تنشأ عصبة عربية ينضم اليها العراق وسورية فوراً على أن يسمح للدول العربية الأخرى بالانضمام اليها متى شاءت.

4 ـ أن يكون لهذه العصبة العربية مجلس دائم ترشحه الدول المنخرطة في سلك هذه العصبة ويرأسه أحد رؤساء تلك الدول على أن يتم انتخابه برضاء تلك الدول.

5 ـ أن يكون مجلس العصبة العربية مسؤول عن الأمور التالية : الدفاع، الشؤون الخارجية، العملة، المواصلات، الكمارك، حماية حقوق الأقليات، التعليم.

6 ـ يمنح اليهود في فلسطين ادارة شبه ذاتية في المنطقة التي يكونون أكثرية فيها مع منحهم حق ادارة مناطقهم في الريف والمدن بما في ذلك المدارس والمؤسسات الصحية على أن تكون جميع تلك المؤسسات تابعة لإشراف الدولة السورية.

7 ـ أن تكون القدس مدينة يسمح الدخول اليها لأبناء جميع الأديان بقصد الزيارة أو التعبد، وتتألف لجنة خاصة من ممثلي الأديان الثلاثة لضمان ذلك.

8 ـ أن يمنح الموارنة في لبنان ـ اذا شاءوا ـ ادارة ممتازة على نحو ما كانوا يتمتعون به في خلال السنوات الأخيرة في عهد الامبراطورية العثمانية على أن تستند الى ضمان دولي أسوة بالادارات السابقة وفقاً لأحكام الفقرتين 6 و 7 .

وعن عرب فلسطين واليهود كتب نوري السعيد يقول :

(إننا نجد عرب فلسطين يتخوفون من أن يصبحوا أقلية في دولة يهودية ولذلك نراهم معارضين أشد المعارضة في منح اليهود حقوقاً خاصة ولكن لا بد أن يخف هذا العداء اذا أصبحت فلسطين جزءاً من دولة عربية قوية كبيرة، وبذلك أيضاً يزداد اطمئنان اليهود على سلامتهم، فضلاً عن ازدياد الفرص الاقتصادية السانحة لهم عندما يصبحون طائفة متمتعة بإدارة شبه ذاتية في دولة أكبر بكثير مما كانوا يأملون).

بالرغم من أن نوري السعيد كان من الرعيل القومي العربي الأول، إلا أنه فقد ثقة التيار القومي الجديد بسبب دوره في حركات عام 1941 واصطدم بالتالي مع رواد المشروع القومي العربي الثوري الجديد المتحالف مع دول المحور إبان الحرب العالمية الثانية وفيما بعد الاتحاد السوفييتي إبان الحرب الباردة.

إن النجاح لا يقاس إلا بالنجاح، وقد أجهض مشروع الهلال الخصيب آنذاك لصالح مشروع «ثوري» ثبت فشله بعد نصف قرن. ليس في هذا إدانة أو تزكية لأحد، خاصة وأن كاتب السطور هو أحد المساهمين في هذه التجربة والمطلوب تجاوز التجربة.

ـ إن فشل المشروع القومي العربي «الثوري» في تحقيق أهدافه أضاف أعباء ثقيلة على الشعوب العربية ومقارنة بسيطة بين ما كان مطروحاً وما هو معروض اليوم يوضح ذلك العبء. ليس في هذا عودة للماضي بل دعوة للانفتاح والاستفادة من فرص متاحة اليوم قد تكون متواضعة ولكنها حتماً خطوة للأمام.

اذا كانت تطورات ما بعد الحرب العالمية الثانية قد حالت دون تحقيق مشروع الهلال الخصيب، فيا ترى هل الفرصة متاحة اليوم لنظام اقليمي جديد يؤسس على أطروحة الهلال الخصيب ويستند الى مصالح اقتصادية وأمنية مشتركة؟

إن هيمنة القطبية العالمية المزدوجة التي غذت التناقضات الاقليمية، وبداية الصحوة العربية من الحلم «الثوري» وغياب الخوف من هيمنة قطر عربي على آخر، وحاجة اسرائيل الى السلام الشامل، والحاجة الملحة للتنمية الاقتصادية والاقليمية المشتركة، كلها عوامل توفر فرصة قد تكون نادرة لبناء النظام الاقليمي الجديد.

من مجلة «الملف العراقي ـ غسان العطية ـ عدد 49ـ 1996».

❖ ❖ ❖

نماذج طريفة عن اختلاط سكان الهلال الخصيب

إن العلاقات الحضارية والسكانية بين العراق ومناطق الشام قديمة. صحيح أن بلاد النهرين ظلت عادة تستقبل الهجرات الشامية، إلا أن أهل العراق بصورة أقل بكثير، ظلوا يهاجرون الى سواحل الشام لأسباب تجارية وكذلك كملجأ من الاضطهاد. هنا مقاطع عن الأسر اللبنانية التي تعتقد بأصولها العراقية. تكمن طرافة الموضوع في بعض التفاصيل التي تستحق بعض التوقف من حيث اعتقاد بعض العوائل المارونية الكبرى والمهمة بأصلها العراقي :

❖ جد الأسر التنورية ـ تنورين منطقة مارونية شمال بيروت

الجد الأول للأسر التنورية (حرب ـ يونس ـ طربيه ـ داغر ـ يعقوب) يدعى خطار وهو أتى من بلاد ما بين النهرين، هجر بغداد سنة 1421 الى مدينة حلب في شمال سوريا حيث سكن هناك قرقماز الأول كان أحد أحفاده نقل الى دمشق وكان يشغل منصب كاتخداه (أمين سر نائب الشام) اتهم بحماية الثائرين على الضرائب وفداحتها فهرب الى لبنان عام 1471 حيث استقر في يانوح واعتنق النصرانية مع أولاده (مخطوطة الأب بولس مطر) (جد أهالي «تنورين» الأول بغدادي اسمه خطار هجر بغداد عام 1421 الى حلب. نقل من أحفاده واحد اسمه قرقماز صار كاتخداه عند الحاكم. ثم عند مطالبة الشعب برفع البلص ساعده قرقماز الأول وهرب الى يانوح وصار نصراني مع أولاده). وجاء في المخطوط المعادي المؤرخ عام 1599 «إن جد أهالي تنورين هو بغدادي نقل الى حلب و رحل أحفاده الى الشام ثم الى لبنان» إذن فعيال تنورين مرجعهم الى أصل واحد، بسبب عدم توفر أسباب المعيشة والرزق لأولاد وأحفاد قرقماز الأول في يانوح نقل أحدهم المدعو قرقماز الثاني الى العاقورة حيث بنى كنيسة مار سابا. من أحفاد قرقماز الثاني موسى الذي نزح الى الهرمل عام 1491 وتوطن في بلدة مرجحين وتوفي فيها عن ولد اسمه جرجس ابي قرقماز. هذا الأخير دخل في منازعات دموية مع المتاولة هناك الذين حاولوا خطف إحدى بناته فاضطر الى الرحيل الى قرية تنورين التحتا وذلك عام 1520. هناك أقطعه الحاكم المتوالى أرضاً بين النهرين.

من كتاب «موارنة لبنان ـ محمد دكروب ـ ص 52ـ53».

الأكثر طرافة أن الصدفة التاريخية جعلت أن يكون الثلاثي الحاكم في لبنان، حسبما يعتقدون، من أصول تعود الى العراق: الرئيس الماروني (الياس هراوي) ورئيس الوزراء السني (رفيق الحريري) ورئيس مجلس النواب الشيعي (نبيه بري).

❖ «لعل العائلات المشهورة حظيت من معلومات الكتاب بحصة وافرة لسهولة الحصول على تاريخ مفصل لها من مصادر متنوعة أوردها بمعظمها رغم تقارب هذه المعلومات. ومن المفارقات كما أورد أبو سعد أسماء لافتة لبعض العائلات، وذلك أن بين الأسر المسلمة من يتسمى بأسماء من أصل صليبي، كآل برنار وداكيز ودبليز وشمبور. ويرى بعض المؤرخين أن هذه التسميات تعود الى اعلان بعض الصليبيين ــ الذين جاؤوا الى لبنان خلال الحملات ــ إسلامهم، وانخرطوا مع تعاقب القرون في البيئة الاسلامية اللبنانية.

وللأسماء والألقاب الطريفة أسبابها وتعليلاتها في المعجم، ومنها على سبيل المثال تسميات عائلات الرز والكوسا والبرغل والابريق والباعوط، واسم الأسرة الأخيرة هو سرياني لعيد كان يقع نهار الاثنين الذي يلي الفصح، ويعني التضرع والابتهال. كما ان اسم «فتوش» هو عربي عامي محرف عن «الفتوت» وهي أكلة قوامها في الأصل خبز يابس يفت ويعالج بالتوابل والزيت والخضار والسماق والبصل والفجل، ولا يعرف الكاتب شيئاً عن أصولها، إلا أن أشهر من برز منها النائب وزير السياحة الحالي نقولا فتوش.

ولترويكا السلطة في لبنان جذور تاريخية متقاربة كما يبين المعجم، فقد أورد الكاتب استناداً الى معلومات تاريخية موثقة أن رئيس الجمهورية اللبنانية الياس الهراوي هو سليل أسرة سكنت زحلة في البقاع وبسكنتا وأصلها في قرية الهري في شمال لبنان. أما جذورها فهي تعود الى اسم أسرة في العراق هي فخذ من آل زياد. ورئيس مجلس النواب اللبناني نبيه بري (الرقم 2 في الترويكا) اسم اسرته مشترك بين المسلمين الشيعة في جنوب لبنان والمسيحيين في غوسطا وصربا. وهو اسم علم يشبه النسبة، كان لجماعة من عرب البقاع. كما كان اسماً لفخذ من البزون في العراق، وبه عرفت قبيلة كانت تقيم في بادية الشام وباب النيرب في حلب. ولعائلة رئيس مجلس الوزراء اللبناني رفيق الحريري (الرقم 3 في الترويكا) فروع اسلامية شيعية وأخرى سنية. وأصل الاسم عربي يطلق على من يعمل أو يتاجر بالحرير. والأرجح ان مصدرها يعود الى قرية حرير القريبة من البصرة ويقال أن جد هذه الأسرة هو الشيخ علي بن أبي حسن الحريري الذي هاجر من حرير الى الشام وتزوج هناك

ونمت له ذرية توزعت على حماة وحوران وحلب. وآل الحريري الذين ينتسب اليهم الرئيس الحريري أصولهم حلبية».

من مقال عن (معجم أسماء الأسر في لبنان) ـ سناء الجاك وجريدة الشرق الأوسط 25 ـ 2 ـ 1997».

❖ ❖ ❖

العروبة العرقية البدوية الرومانتيكية!

المفكر والناقد جورج طرابيشي يورد لنا مقاطع من طروحات (زكي الأرسوزي) أحد مفكري ومؤسسي التيار القومي «البعثي». ونكتشف من خلال ذلك مدى تطرف وسذاجة الطروحات القومية العرقية التي غرقت في «الرومانسية السياسية» وقرأ ت التاريخ من وجهة نظر قومية بل حتى قبائلية بدوية، الى حد احتقار جميع فترات وجوانب التاريخ الحضاري لشعوب المنطقة:

❖ وفي نص آخر يحدد فيلسوف «الأصالة الرحمانية» هوية أولئك الدخلاء و «الأغيار» و«الهجناء» بمزيد من الوضوح فيقول :

«ما إن نفد الدم العربي في الفتوحات وفي الاختلاف على مشروعية الحكم حتى تجرأ هجين، وهو المأمون على انتهاك حرمة بلاد العرب واحتلال عاصمة بلادهم بغداد بجيش من خؤولته من صعاليك إيران. وقام هجين آخر، وهو المعتصم بنقل العاصمة من بغداد الى سامراء، كي يحرر بني خؤولته، أوغاد تركستان، من رعاية العرب. وعندئذ أخذ العرب يتقلصون عن المدن آوين الى الأرياف. وعندئذ أخذ الدخلاء والهجناء والرعاع يطغون على سطح الحياة. وما إن طغى الأغيار على البيئة العربية حتى زاغت قيم الحياة الأصيلة عن محورها بحيث بدا الميل سوياً».

ومن الممكن تحديد دراما الانحطاط أو «الانحراف» عند الأرسوزي بأنها النقلة المزامنة لتحول العرب من الجاهلية الى الاسلام، من «العروبة» الى «العجمة»، لا بالمعنى العرقي للكلمة، فحسب، بل بالمعنى اللغوي أيضاً وأساساً. فخروج العربي الى العالم حاملاً رسالة الاسلام لتبرئة «الشعوب من آثامها» قد اضطر هذا العربي إياه الى مخالطة هذه الشعوب فاتحاً أمامها باب «الاستعراب» وزاجاً نفسه في وهدة «الاستعجام». ومن هنا كانت الخسارة مضاعفة. فـ «استعجام»

العربي قد أخرجه عن محور شخصيته أي عن حقيقته كما كانت تتجلى في العصر البطولي الجاهلي مما استتبع «انحلالاً» في لسانه، هذا اللسان الذي «به يتلخص بنيان الأمة» ومنه يستمد أبناؤها «مصدر كينونتهم» والذي بانقطاعه عن «أرومته» بل عن «رحمه» الأولى انقطع عن «نسغه» المغذي فأمسى «كالورقة التي قطعت عن غصنها فجفت وتناثرت في مهب الرياح». وفي الجبهة المقابلة جاء «استعراب» الأعجمي «الدخيل» ليوصل مأساة العربي «الأصيل» الى ذروتها. فـ «المستعربون»، الذين تطفلوا «كالبرغش» على دين العربي ولسانه معاً أتقنوا العربية من «خارج حدسها» بدون أن يكون في مكنتهم بحكم قدرهم البيولوجي ان جاز التعبير أن يتصلوا بها «اتصالاً رحمانياً» وبدون أن تكون لهم «بمثابة الأنسجة من الكائن الحي» و«الأم من مهجة كبدها».

وعلى هذا النحو بقي مثل هؤلاء «المستعربين» من اللسان الذي استعاروه مثل «الأمة المشتقة» من «الأمة الأصيلة» فبدلاً من أن يكون كيانهم ولسانهم شيئاً واحداً، وبدلاً من أن توحي كلماتهم بحقيقتهم، بقيت الكلمة عندهم «دلالية واصطلاحية يلتصق بها المعنى عرضاً مثلما تلجأ الروح المتشردة الى الجثة فتستوحش منها».

إنه لا يرى للعرب من مخرج من مأزق «الانحطاط» و «الانحلال» و «الانحراف» إلاّ بالعودة عن كل التراث الذي خلفه هؤلاء «الدخلاء»، وبالتطهر من كل السموم التي أفرزوها والتي أمست بمثابة «ظلف» أو «قرمة» ميتة تمنع تدفق النسغ الحي في الجسم العربي. وحتى يستعيد هذا الجسم قابليته للحياة، وقدرته على الإبداع، فلا بد له من تحقيق عودة مثلثة الأبعاد الى الوراء كطريق وحيد الى النهوض، أو «البعث» كما يؤثر فيلسوف «الرحمانية» أن يقول:

الارتداد زمنياً الى الجاهلية باعتبارها عصر العرب البطولي الذهبي:

ـ «أي عهد من تاريخنا انبلج في المثل الأعلى عن طبيعة أمتنا كقرارة لها وأمنية كما انبلج في الجاهلية؟ ونحن بالعودة الى جاهليتنا نلتقي مع أصول الثقافة الحديثة، الأصول التي تقوم على الاعتقاد بأن النفس تنطوي على مقوماتها، على عقل يؤهلها لمعرفة الحقيقة ووجدان ينير لها سبيل المعرفة. وفضلاً عن ذلك إننا لنتحاشى بهذه العودة ما أورثنا التاريخ من حزازات بين المذاهب والأديان».

الارتداد عن الحضارة المكتسبة الكاذبة الى البداوة الفطرية الأصيلة. فـ «البدوي حارس العروبة» كما يقول العنوان البليغ الدلالة لمقال كتبه داعية البعث الرحماني عام 1965 يعارض فيه «تحضير البدو»:

ـ «إن ابن البادية لا يمثل الأصالة فحسب، بل إنه العنصر الذي تقوم عليه ملاءمة الأمة العربية للمراحل التاريخية التالية.. إن كل نهضة عربية أصيلة قامت على ساعد أهل البادية.. أعتقد أن الخطأ كل الخطأ في الرأي القائل بتحضير البدو، ففي تحضير البدو إخضاع الأمة العربية للأراجيف التاريخية».

من كتاب «مذبحة التراث ـ جورج طرابيشي ـ ص 21ـ23».

طبعاً إن آثار وتطبيقات هذا الفهم القومي العنصري المحتقر للآخر وللذات الوطنية التاريخية كان ولا زال السبب الأول في جميع كوارث المنطقة وتمزق شعوبها وانعزال أنظمتها. هنا نموذج بسيط للتطبيقات السياسية لهذا الفهم العرقي :

❖ تهجير وتعريب!

أخطرت سلطات صدام 700 عائلة من أهالي خانقين بضرورة تغيير قوميتها من كردية الى عربية، وخاصة عشيرة الكاكائي التي أصبح اسمها البياتي أو الطائي، وكانت هذه السلطات قد رحلت 700 عائلة ممن لها أبناء في كردستان أو خارج العراق.

المشرف على عمليات التهجير والتعريب في جولتها الراهنة هو روكان التكريتي.

(جريدة المؤتمر العراقية 7ـ3ـ1997– لندن) .

❖ ❖ ❖

وحدة «المشرق» في فكر انطون سعادة والحزب القومي السوري

إن المفكر (أنطون سعادة) زعيم الحزب القومي السوري يُعتبر من الرواد الأوائل الذين أكدوا على أن الأرض والبيئة والجغرافية هي التي تصنع «الأمة» وليس العكس كما هو شائع لدى القوميين العرب الذين تبنوا الفكرة القومية الألمانية التي تؤكد على أن «العرق واللغة» هي التي تصنع الوطن والأمة. بالنسبة لأنطون سعادة إن الوطن السوري يعني «الهلال الخصيب» أي سوريا والعراق ولبنان والأردن وفلسطين بالاضافة الى الكويت التي اعتبرها جزءاً من العراق. وأكد في جميع كتاباته أن الأرض السورية صهرت العديد من الشعوب والأقوام والجماعات في الحضارة السورية الممتدة منذ آلاف السنين.

رغم اعجابنا بشخصية (أنطون سعادة) واتفاقنا مع فكرته عن الانتماء للأرض وليس للعرق، وعن التقارب الخاص بين بلدان «المشرق» وغيرها من الأمور، إلا أننا نختلف أيضاً في أمور أساسية مثل :

1 ـ إطلاقه تسمية سوريا على منطقة المشرق (الهلال الخصيب) وهذا اختيار غير عملي لأن هناك دولة واقعية اسمها (سوريا) ومن الصعب على أبناء بلدان المشرق تبرير ادعائهم حمل اسم سوريا. وقد أثبتت التجربة أن هذا كان اختياراً غير واقعي. ونعتقد أن تسمية (المشرق) الأكثر واقعية ومقبولية.

2 ــ أن الحزب القومي السوري لم يختلف عن باقي الأحزاب القومية في الاعتقاد بأن (الحدود مصطنعة) وتكوين (تنظيم قومي حزبي شامل) من أجل قيادة النشاطات ضد (الحدود المصطنعة) وغيرها من الأمور. أننا نعتقد أنه من الضروري التخلي عن فكرة (الحدود المصطنعة) ويتوجب الاعتراف بخصوصية كل بلد مشرقي وعربي مع الدعوة الى التقارب والتوحد على الطريقة الأوروبية والتخلي كذلك عن فكرة «التنظيم القومي الموحد». وبدل ذلك خلق تيار فكري سياسي تنتمي اليه مختلف الأحزاب المتشابهة على طريقة الأحزاب الشيوعية والأحزاب الاسلامية والأحزاب الليبرالية. كل مجموعة من هذه الأحزاب تجتمع وتنسق مع بعضها كتيار واحد، ولكن من دون تكوين قيادة موحدة وفروع «قطرية» تابعة!

3ـ لقد فشل الحزب القومي السوري بتحديد موقف واضح من الطروحات القومية العروبية التي سيطرت على الساحة، إذ تأرجح موقفه بين العنصرية ضد العرب أو التطبيل والتزمير للعروبة والوحدة العروبية. ولم يتمكن الحزب من اتخاذ موقف عقلاني يؤكد على ضرورة التقارب والتوحد أولاً بين بلدان المشرق العربي ثم التقارب والتوحد بين الأقاليم (العربية) المختلفة: المغرب والنيل والجزيرة العربية.

4ــ ان انطون سعادة والحزب القومي السوري لهم الريادة بطرح فكرة الجمع بين المادية والروحية تحت اسم (المدرحية). لكنهم للأسف فشلوا بتطوير هذه الفكرة الأصيلة وضاعوا بالطروحات المقتبسة نصاً من الفلاسفة الغربيين، وترهلت هذه الفكرة مع الزمن حتى تم تناسيها تماماً ونحن نعتقد أن هذه الفكرة هي مستقبل الفكر الانساني ويمكن تطويرها وتعميقها (راجع الفصل الأول من هذا الكتاب).

هذه مقاطع عن مفهوم القومية لدى المفكر (أنطون سعادة) من (نشوء الأمم) والذي يُعتبر من أفضل كتبه ويستحق إعادة القراءة، وقد أصدره عام 1938 :

❖ «إن الأمة من الوجهة السلالية أو من وجهة الأصل، هي مركب أو مزيج معين كالمركبات الكيماوية التي يتميز كل مركب منها بعناصره وبنسبة بعضها الى البعض الآخر. وهذه الأمة السورية. فأي أصل واحد لها؟ أهو الأصل الكنعاني (الفينيقي)، والكنعانيون جاؤوا طبقة فوق طبقة أهل العصر الحجري، أم الأموري أم الحثي أم الآرامي (الكلداني)؟ أو ليست سورية مزيجاً أو مركباً معيناً من هذه الشعوب مضافاً اليها العرب بعد الاسلام وغيرهم. واذا أخذنا الوجهة الانثروبولوجية من الأصل السوري وجدنا أنه كذلك مزيج من مفلطحي الرؤوس ومعتدليها ومستطيليها كما أثبتت ذلك الأبحاث الانثروبولوجية. وكما سنسهب ذلك في الكتاب الثاني. قد رأينا أن فرنسا لا تختلف عن سورية وايطاليا بهذا الصدد. واذا وجهنا نظرنا الى انكلترا والجزر البريطانية عموماً فاننا نجد الحالة نفسها من المزيج ففي انكلترا وحدها شعبا «الانكليز والسكسون» ثم ما جاءهم من رومان، وهؤلاء الأخيرون كان لهم التأثير في تغيير لغة الانكليز حتى أصبحت لاتينية أكثر منها جرمانية، حتى أنشد تنسون «من نرمان وسكسون ودنمركيين نحن».

وماذا نقول في ألمانيا. أليست هي خليط من نحو ثلاث سلالات اتثروبولوجية وتختلف اشكالها السلالية في الشمال والجنوب والوسط. مع كل ما يعني هنالك عن نقاوة الدم الآري؟ وهذه أميركا أمامنا فأية وحدة سلالية، تاريخية، أو أنثروبولوجية لها؟ أليست الولايات المتحدة خليطاً من انكليز وألمان وإرلنديين وطليان وسوريين وفرنسيين وأسوجيين... الخ. والبرازيل أليست هي خليط من برتغاليين وسوريين وألمان وطليان وزنوج وهنود أصليين واسبان. وعلى هذا قس أية أمة أميركية أخرى. أكرر أن الأصل الانساني الوحيد للأمة هو وحدة الحياة على تعاقب الأجيال وهي الوحدة التي تتم دورتها ضمن القطر. المزيج المتجانس أصل كاف للأمة وهذا المزيج هو ما يعبر عنه أحياناً بلفظة السلالة.

لا أمة على الإطلاق بدون قطر معين محدود. أما ما ذهب اليه اسرائيل زنويل Israel Zangwill من أن الشعب اليهودي تمكن من الاحتفاظ بنفسه بدون بلاد فمن الأغلاط الاجتماعية الفاضحة، فاليهود قد احتفظوا بيهوديتهم الجامدة من حيث هم مذهب ديني. وقد أكسبهم دينهم الشخصي عصبية لا تلتبس بالعصبية القومية إلا على البسطاء والمغرضين.

اليهود ليسوا أمة أكثر مما هم سلالة (وهم ليسوا سلالة مطلقاً)، إنهم كنيس وثقافة. لا يمكننا أن نسمي اليهود أمة أكثر مما يمكننا أن نسمي المسلمين أمة والمسيحيين أمة أو السنيين أمة أو الشيعة أمة والأرثودكس والكاثوليك أمة الخ. ولجميع هذه المذاهب عصبياتها وتقاليدها التي تتميز بها. الأمة تجد أساسها قبل كل شيء آخر في وحدة أرضية معينة تتفاعل معها جماعة من الناس وتشتبك وتتحد ضمنها.

لعل سورية أفضل مثال للبيئة التي تصهر الجماعات المختلفة النازلة بها وتحولها الى مزاج واحد وشخصية واحدة. فنحن نعلم أن سورية كانت مأهولة في العصر الحجري المتوسط، كما دلت البقايا المكتشفة في فلسطين، وأنها على الأرجح مصدر الثقافة المغالثية. ونعلم أيضاً أن جماعات شمالية كالحثيين وغيرهم قطعت رؤوس طورس وهبطت سورية لتلتقي فيها بالجماعات الجنوبية الخارجة من الصحراء فتمتزج هذه الجماعات كلها وما أضيف اليها مما جاء من الغرب كالفلسطينيين بعضها بالبعض الآخر وببقايا جماعات العصر الحجري وتكون مزيجاً خاصاً. ومع أننا نتمكن بالأدلة الرأسية والدموية من تقصي مختلف السلالات الموجودة حالياً في سورية فإننا نرى لها كلها طابع البيئة الخاص الذي يكسبها تشابهاً قوياً وتجانساً شديداً.

أما حيث تكون النفسيات الداخلة في لغة جديدة قوية فإنها تفعل في اللغة وتكسبها من نفسياتها وتوجيهها في التعبير عن احتياجاتها ومثلها العليا شأن السوريين في اللغة العربية فانهم أخذوها عن الفاتحين العرب ولكنهم نقلوا الى هذه اللغة علومهم وأدبهم ومجاري فكرهم فأصبحت اللغة العربية لغتهم القومية تسيطر نفسيتهم ومواهبهم فيها في بيئتهم وتجاوزها. وان من الأسئلة التي تنبه الفكر الى هذه الحقيقة : ماذا كانت تكون الثقافة العربية لولا ما نقله السوريون من السريانية واليونانية الى اللغة العربية؟».

من كتاب «نشوء الأمم ـ أنطون سعادة ـ ص 154ـ160».

❖ ❖ ❖

الخوف الاسرائيلي من ادعاء الفلسطينيين بديمومة تاريخهم وأصالتهم في أرض فلسطين

نورد هنا نص مقالة نشرها كاتب اسرائيلي معروف. من خلال هذه المقالة نكتشف مدى الأهمية التي يمنحها الاسرائيليون لفكرة إيمان الفلسطينيين بديمومة جذورهم الوطنية في أرض فلسطين منذ الكنعانيين «على الأقل». والغريب أننا نكتشف من خلال هذه المقالة أن دعوة الفلسطينيين بجذورهم الكنعانية قديمة وتعود الى العشرينات، ولكن يبدو أن الاجتياح القومي الاسلامي خنق هذا الادعاء الفلسطيني باسم الأصل العربي الاسلامي!

❖ «اطلاع الجمهور الاسرائيلي على الادعاء العربي ـ الفلسطيني بأن عرب هذه البلاد هم ورثة وأحفاد الكنعانيين حدث في هذه الأيام إلا أن الادعاء نفسه قديم جداً فمنذ العشرينات كانت القيادة العربية الفلسطينية قد ذكرت هذه المسألة من خلال أطروحاتها الموجهة للبريطانيين، كما انها ذكرت في سلسلة مقالات صحافية في حينه. والغرض من هذا الادعاء هو البرهنة على أن عرب البلاد قد سبقوا أبناء اسرائيل الذين غزوا البلاد من الخارج. وهذا الادعاء يتضمن اشكاليات كثيرة فان كان الفلسطينيون هم أحفاد الكنعانيين فما هي علاقتهم وارتباطهم بالشعوب العربية الأخرى من أحفاد المحتلين الذين انطلقوا لاحتلال الشرق الأوسط وشمال افريقيا تحت لواء الاسلام قبل عدة قرون؟ من أجل التغلب على هذه المشكلة ادعو أن شعوب كنعان القديمة مثلهم مثل العمالقة والعموريون كانوا عرباً. لماذا؟ لأنهم تحدثوا بلغات سامية وما هو المغزى من ذلك أن العربية الأدبية ـ كما يدعون بروحية النظريات المتقادمة من القرن التاسع عشر ـ هي أم اللغات السامية، عليه فان كل الناطقين باللغات السامية يتحدثون لغات في اساسها عربية. من الصعب ايجاد تواصل في الواقع التاريخي الذي سبق الاسلام والذي تشكل الوثنية محتواه الديني. وهذا الأمر يعتبر مساساً خطيراً في نظر الاسلام للتاريخ اذ ينظر الى الوثنية التي سبقته على أنها «جهل» لا يتوجب التعامل معه بإيجاب.

المفكرون الاسلاميون بدورهم عارضوا بشدة كل محاولة لخلق تواصل انساني وطني بين العرب الحديثين وبين الشعوب الوثنية القديمة وقد نجحوا بالفعل في القضاء على التوجهات من هذا القبيل من جذورها. عليه فقد خشي الفلسطينيون وارتدعوا من استخدام الادعاء

بكنعانيتهم بشكل كبير واكتفوا بالادعاء الأكثر جدية بحقهم في البلاد لكونهم يشكلون أغلبية فيها. درويش مقدادي معلم وكاتب فلسطيني انتقل للعراق وجلب معه هذه النظرية اذ كانت قد جرت هناك محاولات مختلفة لبلورة وتوطيد هوية وطنية عراقية تقوم على التواصل مع البابليين العرب وصولاً الى العراقيين المعاصرين.

كثيرون من العرب المسيحيين لم يرتدعوا بالمرة عن الادعاء بكنعانيتهم. في لبنان ومصر ظهرت توجهات ونظريات فينيقية وفرعونية بالنسبة للهويات الوطنية اللبنانية والمصرية التي لا يوجد لها علاقة مع القومية العربية إلا أن طابعها المناهض للعرب والإسلام جعل الأغلبية الساحقة من الجماهير ترفضها. وفي أوساط الفلسطينيين واصل مسيحيون مختلفون ترديد الادعاء بكنعانتيهم وبالتدريج انتشر ذلك واستوعب ليصبح مقبولاً من كل الجمهور العربي الفلسطيني وكل طفل عربي أصبح يدرس عنه في المدرسة. ومن خلال فعلتهم هذه يقوم الفلسطينيون بغض النظر عن مشكلة أكثر جدية بالنسبة للادعاء بكنعانيتهم. فهم لا يتطرقون لمسألة اللغة التي تحدث بها الكنعانيون والتي استخدمها الكتاب المتدينون والعلمانيون. وفي أوساط الجماهير العربية هناك اجماع على أن اللغة المشتركة تشكل أساساً لتحديد وبلورة الهوية الوطنية. وهكذا يجعل العرب حسب وجهة نظرهم أمة واحدة ستقوم في المستقبل دولة واحدة موحدة بفضل لغتها العربية. وبناء على ذلك نجد أننا إن قمنا بتجديد الكنعانيين حسب لغتهم ودققنا في هوية ورثتهم لا نجد شيئاً يستجيب لتوقعات الفلسطينيين بالضبط.

لغة كتابات ميشع ملك مؤاب وخرصي السامري وجبل صور في لبنان وغيرها من الوثائق والرسائل المكتشفة في البلاد هي نفس لغة التوراة وهناك من يسمونها العبرية التوراتية والبعض الآخر يسميها السامية الغربية والواضح هو أن العربية المكتوبة نابعة منها أو تشكل تواصلاً لها وإن كان للكنعانية ورثة فهي العبرية الاسرائيلية الحديثة.

الفلسطينيون يتجاهلون الكتابة التي استخدمتها نيفي الكنعانية وهي نفس الكتابة التي وردت بالعبرية وتظهر بشكل تواصل في الكتابات الكنعانية والصيداوية المختلفة وفي كتاب الأحكام كذلك، وهي نفس الكتابة العبرية القديمة التي استبدلها المنفيون الى بابل بالكتابة الآرامية (الآشورية).

انعدام الجدية في محاولة ابراز كنعانية الفلسطينيين الأمر الذي لا يلغي قيمتها فحتى الأمور اللامنطقية والسخيفة التي تعتقد بها الجماهير تتحول الى عامل آيديولوجي يؤثر على المواقف السياسية الملموسة وإن قام الجمهور الفلسطيني فعلاً بهضم الادعاء بأصوله الكنعانية وعلم

أي لغة استخدموها وما هي اللغة الحديثة التي ورثها فإن ذلك قد يقلص من درجة عدائهم لجيرانهم الذين ينطقون بالعبرية، الورثة الفعليين للغة الكنعانية.

ولربما عرف جمهورنا أيضاً أن العبرية التي ينطق بها ليست الا «لغة كنعان» وعندما تنبأ يشعياهو النبي بانتصار أبناء اسرائيل على مصر قال : «في ذلك اليوم ستكون خمس مدن في بلاد مصر تتحدث بلغة كنعان وتدين بالولاء لجنودها».

لغتنا هي لغة كنعان ويريد العرب الفلسطينيون الاعتقاد بأنهم أحفاد كنعانيون فهل يمكن ان يطل وينبثق من هذه المسألة حل جديد ثوري للصراع الدائر هنا منذ قرن من الزمان، وهل يمكن ان تكون النبوءة العبرية الوطنية لكل من ع. ج. حورون وأوري الشلح (يوناتان رطوش) واهارون أمير عوزي اورنان هذه النبوءة التي تنفي بنفس الدرجة اليهودية الصهيونية والعربية بالاسلامية مرتبطة بالواقع أكثر مما اعتقدنا بشأنها؟

يهوشع فورات (معاريف) 1996/9/5

عن جريدة القدس اللندنية 6ـ9ـ1996

❖ ❖ ❖

مشروع لخدمة منطقة المشرق

هذا مثال بسيط على المشاريع المشتركة التي يمكن تنفيذها في المنطقة من دون تلك الخطابات الوحدوية الرنانة والفارغة :

هذه فكرة مشروع لفتح قنال بين البحر المتوسط (الساحل السوري) مروراً بالصحراء السورية والعراقية حتى الخليج العربي ليصب بالقرب من ميناء أم قصر.

صفات المشروع بشكل عام

1 ـ العرض 600ـ800 متر. يكوّن بحيرات مالحة في بعض المناطق المنخفضة.

2 ـ العمق 100ـ200 متر تحت مستوى سطح البحر لتحمل سفن حمولة تزيد عن 100.000 طن.

3 ـ موانىء تجارية وسياحية.

4 ـ مجمعات سياحية وسكنية.

5 ـ طريق محاذ وجسور حسب الحاجة.

6 ـ خطوط خضراء من الأشجار على جانبي القنال بعمق مئات الأمتار على كل جانب كمرحلة أولى ثم تتزايد لتكون خطوطاً خضراء حقيقية بعمق عدة كيلومترات.

أهداف المشروع

1 ـ اقتصادية تجارية لسورية والعراق حيث يلغي القنال في حال انجازه دور قناة السويس ويحقق للعراق منافذ مباشرة للتصدير والاستيراد البحري. كما ان مرور القنال من الغرب وحتى أقصى الجنوب سيحقق فوائد مالية وزمنية عملية ويختصر من دور أساطيل النقل البري التي تمر من تركيا أو الأردن أو أقصى جنوب العراق.

2 ـ سياحية : تظهر نشرات الاحصاء الدولية ان للسياحة دوراً كبيراً في تحقيق عائدات مالية للكثير من بلدان العالم وتظهر الدراسات ان دور السياحة سيتعاظم في القرن المقبل ليضاهي أو يتجاوز دخل البترول للدول المصدرة لهذه المادة من هنا لا بد من التركيز على هذا الجانب باعتبار ان حالة المناخ في الصحراء الغربية في العراق تساعد على انشاء السياحة الشتوية ومن الممكن في حال انشاء المشروع تحويل الصحراء الى مركز عالمي سياحي شتوي مهم لجذب السياح على أن يرتبط ذلك باقامة اتفاقية بين البلدين لتسهيل مرور الأشخاص على جانبي الحدود دون عوائق.

3 ـ اصلاحية صحية : انشاء الخطوط الخضراء على جانبي القنال يساعد على تثبيت رمال الصحراء وزيادة كمية الأمطار وايجاد مساحات زراعية جديدة فضلاً عن زيادة الثروة السمكية في القنال أو البحيرات المتكونة منه، بمعنى آخر فتح الباب جدياً لاستصلاح الصحراء وتغيير المناخ بدرجة كبيرة في المنطقة.

4 ـ ايجاد مجمعات سكنية جديدة وتوفير المزيد من فرص العمل للقرن المقبل واستيعاب الزيادة السكانية.

تكاليف المشروع وامكانيات البلدين

بوسائل التكنلوجيا المتوفرة وبامكانيات البلدين وربما باستخدام طاقات الجيشين (السوري والعراقي) لا تتعدى تكاليف المشروع عدة مليارات من الدولارات وعلى مدى 5 ـ8 سنوات اذا جرى العمل ليلاً ونهاراً.

وباختصار فالمشروع فكرة عامة وتتطلب الكثير من المناقشات السياسية والقانونية والفنية ولكن انجازه سيكون مفيداً للغاية لكل من سورية والعراق ولنبدأ من الآن.

جواد كاظم خلف/ عراقي
مهندس زراعي/ فرنسا

جريدة القدس 4ـ4ـ1997